سير الأنبياء والصالحين (١)

سيرة آدم

(عليه الصلاة والسلام)

دراسة تحليلية

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي







al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

سير الأنبياء والصالحين (١)

سيرة آدم

عليه الصلاةِ والسلام

دراسة تحليلية

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي



الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع

٢٢٨,١٢

خال الخالدي ، صلاح عبد الفتاح

سيرة آدم عليه الصلاة والسلام : دراسة تحليلية / صلاح عبد الفتاح الخالدي .- عمان :مؤسسة الوراق ، ٢٠٠٣.

(...) ص .- (سير الأنبياء والصالحين ؛ ١)

ر . أ. : ١٠١٩/ ٥ / ٢٠٠٣

الواصفات : / الاسلام // قصص القرآن /

تم أعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع

ص . ب ١٥٢٧ عمان ١١٩٥٣ الأردن / تلفاكس ٥٣٣٧٧٩٨

البريد الإلكتروني e– mail : h alwaraq @ hot mail . com

هذه السلسلة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، مَنْ يَهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَ محمداً عبدُه ورسولُه، صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فمنْ سنَّةِ اللهِ التي لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ استمرارُ المواجهةِ بينَ الحق والباطل، واستمرارُ الصراع بين أصحابِ الحق وأصحابِ الباطل، وقد بدأت الصفحةُ الأُولى من هذا الصراع مع أوَّلِ رجلٍ خلقَه الله، هو أبو البشر "آدمُ" عليه السلامِ، وكانت الحلقةُ الأولى من هذا الصراع قد بدأتْ في الجنة، وذلك في الأحداثِ التي وقعَتْ بين آدم عليه السلام وبين إبليسَ عليه اللعنة.

واستمرَّ الصراعُ بين أصحابِ الحَقِّ المؤمنين المتقين، وأصحابِ الباطلِ الكافرين الشياطين، على مدارِ تاريخِ البشرية، وسيبقى هذا المسلسلُ مستمراً، لَن يهدأ ولن يتوقفَ، حتى قيام الساعة.

ويقودُ أصحابَ الباطلِ في هذا المسلسل إبليسُ، الذي يَعيشُ مَلايينَ السنين، فقد كانَ موجوداً قبل خلق آدمَ عليه السلام، وسيبقى حيَّاً حتى قُبيلَ قيامِ الساعة، وجنودُه هم شياطينُ الإنسِ والجن، الكافرون الظالمون!.

بينما يقودُ أصحابَ الحَقِّ في هذا المسلسلِ الأنبياءُ المرسلون عليهم الصلاة والسلام، ومنْ بعدَهم من العلماءِ والدعاة، الصالحين المصلحين، والمجاهدين الصادقين، ولنْ يخلوَ منهم زمانٌ حتى قيامِ الساعة !. وقد أمرَنَا اللهُ بالاقتداءِ بهؤلاء المرسَلين والدعاةِ الصالحين، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: ٩٠]

ولنْ يتحققَ الاقتداءُ بهم إلاّ بعدَ التعرفِ على سِيَرِهم المشرقة، وحياتِهم المباركة، ومواقِفهم الرائعة، وجهادِهم الصادق.

لذلك كانتْ هـذهِ السلسـلةُ الجديـدة: "سِـيَرُ الأنبيـاءِ والصـالحين"، نقـدمُ فيهـا دراساتٍ تحليليةً لهؤلاء الأعلامِ، ونسألُ اللهَ أنْ يُحقـقَ بهـا الفائـدةَ والنفـع.. وصـلى الله علـى سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

الجمعة ٢٧/١٢/١٤٢٣هـ

٢٨/٢ / ٢٠٠٣م

مقدمة

آدمُ عليه السلام هو أبو البشر، أولُ مخلوقٍ خَلَقَه اللهُ من البشر، وجعَلَه مثالاً ونموذجاً للبشر، تمثلتْ فيه كلُّ صفاتِ وسماتِ وخصائصِ الشخصيةِ الإنسانية، بكيانها كلّه، جانبِه المادي، وجانبِه الروحي، وجانبه النفسيّ والشعوري.

وقد أخبَرنا اللهُ عن حياته في القرآن، وجاءَ الحديثُ عنه في سُوَرٍ مكية ومدنية، حيث تحدثَتْ عنه سُوَرُ: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، وطه، وص.

ولم يُخبرنا عن التفاصيلِ الدقيقةِ لقصةِ آدمَ عليه السلام، إنما أخبرنا عن الأحداث من قصتِه التي لنا فيها العبرُ والعظات، والدروسُ والدلالات، وما طَواهُ عَنّا ولم يُخبرنا به عَلِمَ بحكمته سبحانه أنه لا فائدة لنا فيه.

لقد كانت حياةُ آدمَ عليه السلام حياةً عجيبةً مثيرة، وتنقسمُ إلى قسْمَيْن:

القسمُ الأول: حياتهُ في الجنة: حيثُ خلَقَهُ اللهُ فيها، وخَلَقَ لَه فيها زوجَه حَوّاء، وأباحَ له الاستمتاعَ بخيراتِ الجَنَّة، إلاّ شجرةً واحدة، نهاهُ عن الاقتراب منها، ومازالَ إبليس يوسوسُ له ولزوجه حَوّاء، حتى أكَلا من الشجرة، ثم شَعَرا بالخطأ فتابا وأنابا إلى الله، فتابَ اللهُ عليهما، وغفرَ لهما، وتَجاوزَ عنهما.

القسمُ الثاني: حياتهُ على الأرض: حيث رَتَّبَ اللهُ الحكيمُ بقَدَرِه إنزالَه إلى الأرض على أكْلِه من الشجرة، لأنّ اللهَ خَلَقَه أساساً للأرض، ليكونَ خليفةً فيها، فلم يكنْ إنزالُه إلى الأرض عقاباً من الله له، لأنه تاب عليه، وإنما كانَ هذا الإنزالُ إنفاذا لقدرِ الله، لتبدأ الحياةُ البشريةُ على الأرض.

وعاشَرَ آدمُ على الأرض زوجَه حَوّاء، وأنجبتْ له الأبناء، وشهدَ آدم قبلَ وفاته نجاحَ الشيطانِ في إغواءِ أحد أبنائه، الذي عَدا على أخيه فقَتَله، وكانَ آدمُ أوَّلَ نبيٍّ عليه السلام، بعثَهُ اللهُ إلى أبنائه، ليُعَرِّفَهم على طريقِ الهُدى المستقيم.

ومن أجلِ التعرُّفِ على حياةِ آدمَ عليه السلام، والوقوفِ على عِبرِها وعظاتها، ودروسِها ودلالاتِها، أعدَدْنا هذه الدراسةَ التحليليةَ لسيرته عليه السلام.

وقد حرصْنا في هذه الدراسةِ التحليليةِ على البقاءِ مع مصادرِنا الإسلاميةِ الموثوقة، وهي آياتُ القرآن، وما صَحَّ من الأحاديثِ المرفوعةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحرصْنا

على أنْ لا نوردَ روايةً أو خَبَراً من الإسرائيليات أو الأساطير، واقتدَيْنا في ذلك بالصحابةِ الكرام والعلماءِ الأعلام، الذين لم يَتَجاوزوا القرآنَ والحديثَ الصحيح.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

الجمعة ١٤٢٣/١٢/٢٧هـ

٢٠٠٣ / ٢/٢٨م

(١)
الله خالق كل شيء

الله سبحانَه وتعالى هو الخالق، خلقَ كلَّ شيء في السمواتِ والأَرض، فكلُّ ما سواهُ مخلوق، أبدعَه الله، وأوجدَه من العدم.

إنّ اللهَ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطن.. الأولُ ليس له بداية، فليسَ قبلَه شيء، والآخِرُ فليس له نهاية، وليس بعده شيء، وهو الظاهرُ فليس فوقه شيء، وهو الباطن، فليسَ دونه شيء .. لم يَلِدْ، ولم يولَدْ، ولم يكنْ له أحدٌ كُفُواً أو نِدّاً أو مثيلاً أو شبيهاً.

هو اللهُ الذي لا إله إلا هو، ولا شريك له، الحيُّ الباقي، المالكُ لكلّ شيء، في السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة.

كان الله ولم يكن قبله شيء، لأن كلّ ما سواه مخلوق، والله هو الذي خلقه، فلا يُتصوَّر عقلاً أن يكون قبله شيء، لأنه لو كان قبلَه شيءٌ لما كان مخلوقاً، ولكانَ أزليّاً، وهذا مستحيلٌ عقلاً!.

وكان اللهُ ولم يكنْ معَهُ شيء، فهو الأحَدُ المنفردُ بالوحدانية، وكلُّ ما سواه مخلوق، خَلَقه اللهُ بإرداته، فلا يُتَصَوَّرُ أن يكونَ معه شيء.

وكلُّ هذا الوجود - المتمثلُ في السمواتِ والأرض وما بينهما - مخلوق، اللهُ هو الذي خَلَقَه وأوجدَه، فوُجِدَ هذا الكونُ بأمْرِ الله وقدرتِه وإرادته سبحانه وتعالى.

أرادَ اللهُ الحكيمُ خلْقَ هذا الوجود، لحكمةٍ يُريدُها سبحانه، فأوجَدَه مُتْقَناً مُرَتَّباً مُنَظَّماً متناسِقاً، ولم يخلُقْه لَهواً ولا عَبثاً ولا لعباً، سبحانه.

خلقَ اللهُ السموات والأرض من العدم، لم يكونا شيئاً، فقد مَرَّتْ على هذا الوجودِ فترةٌ زمنية ليس فيها إلاّ اللهُ تعالى، وحْدَهُ لا شريك له... ليس فيها سمواتٌ ولا أرض ولا نُجومٌ ولا كواكب، ولا جنةٌ ولا نار، ولا ملائكةٌ ولا إنسٌ ولا جنّ، بل ليس فيها عرشٌ ولا كرسيّ، ليسَ فيها إلا اللهُ وحْدَه، ولا يَعلمُ مدةَ هذه الفترةِ الزمنية إلاّ اللهُ وحْدَهُ، لأنه هو الذي قَدَّرَها وأرادها.

ثم أرادَ اللهُ خلقَ هذا الوجود، فَخَلَقَ ماءً، وخَلَقَ دخاناً، وخَلَقَ عرشَهُ العظيم الكريم، ووَضَعَ عرشَه على ذلك الماء، ولا نعرفُ كميةَ ذلك الماء ولا مكانَه، ولا من أينَ خَلَقَه، كلُّ ما نعرفُه أنَّ ذلك الماءَ مخلوق، وأنَّ عرشَه كان على ذلك الماء، وأنَّ هذا كانَ قَبلَ خلْقِ الإنسان، وقبلَ خلْقِ السمواتِ

والأرض، ودليلُنا على هذا قولُه سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧].

تدلُّ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنّ اللهَ خَلَقَ الماءَ، وأنه خَلَقَ العرشَ العظيم، وأنه جعلَ عرشَه على ذلك الماء: "وكان عرشه على الماء"، ولا يُرادُ بذلك الماءِ ماءُ المحيطاتِ والبحارِ والأنهار، لأنّ هذا الماء جاءَ بعد خلْق الأرض، والماءُ الذي كان عرشُ الرحمن عليه خُلِقَ قبلَ خلْق السموات والأرض، فهو ماءٌ خاص، خُلِقَ خلقاً خاصاً، ووُضِعَ في مكانٍ خاص، وجُعِلَ العرشُ عليه بكيفيةٍ خاصة.

ولما خَلَقَ اللهُ العرشَ استوى عليه، وعرشُه عظيمٌ كريم، لا يَعلمُ حجمَه ولا عظمتَه إلا من خَلَقَه سبحانه وتعالى، واستواءُ اللهِ على عرشِه ثابتٌ بالآياتِ القرآنية، منها قولُه تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]

وهو استواءٌ يليقُ بعظمتِه سبحانه، نثبتُه له لأنّه أثبته لنفسه، لكنّنا لا نعرفُ كيفيته، لأنّنا لم نرَ اللهَ سبحانه، ولم نشاهد استواءَه على عرشِه، فنثبتُه له بدون تكييفٍ أو تأويلٍ أو تمثيلٍ أو تجسيم، ورحمَ اللهُ الإمامَ مالكاً عندما أجابَ مَنْ سألَهُ: كيفَ استوى اللهُ على العرش؟ فكانَ قولُه: الاستواءُ غيرُ مجهول، والكيفُ غيرُ معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعَة !"

(٢)
خلق السموات والأرض في ستة أيام

بعدما خَلَقَ اللهُ "ماءً"، ثمّ خَلَقَ عرشَه، ثم جعلَ عرشَه على ذلك الماء، أرادَ خَلْقَ السموات والأرض، فتوجَّهَتْ إرادتُه إلى خلْقهما وإيجادهما، وما يريده سبحانه يوجِدُه، لأنَه لا رادّ لأمْرِه، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

كانت السمواتُ والأرضُ متصلَتَيْن، ففَصلَ اللهُ بينَهما، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠]

والرَّتْقُ هو: الضَّمُّ والالتحام، والفَتْقُ عكسُه، وهو الفصلُ بين المرتوقَيْنِ المتصلَيْن.

فالآيةُ صريحةٌ في أنهما كانتا ملتحمتَين، وكأنهما قطعةٌ واحدة، ولا يَعلمُ إلا اللهُ الفترة الزمنية التي مَضَتْ عليهما متصلَتَين مرتوقَتَيْن، كما لا يَعلمُ إلاّ اللهُ المادّةَ التي كانتا عليها وهما في هذه الحالة، هل هي دخانٌ أو غبارٌ أو سديمٌ أو تراب أو غيرُ ذلك.

ثم فَتَقَهُما اللهُ وفَصلَهما عن بعضهما، فصارا قسمَيْن منفصلَين، ولاَ يعلمُ إلا اللهُ كيفَ ومتى فَتَقَهُما وفَصَلَهما.

وقد أخبرنا اللهُ أنه خَلَقَ السموات والأرض في ستةِ أيام، وورد ذلك في عدة آيات قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق:٣٨]

واللُّغوبُ هو التعبُ والإعياء، والحاجةُ إلى الراحة، واستردادُ النشاطِ والحيوية، وهذا من صفاتِ المخلوقين، فعندما يقومُ أحدهم بعملٍ شاقّ يمسُّه اللُّغوب والتعب، ويكونُ محتاجاً إلى استعادة عافيته ونشاطِه، فيستريحُ لمعاودة العملِ والنشاط!.

أمّا الخالقُ القويُّ الذي ليس كمثله شيء، فإنَه لا يَحتاجُ إلى هذا، ولا يُصيبُهُ ما يُصيبُ المخلوقين من أعراضِ النقصِ والضعف.

خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرض في ستةِ أيام، والرقمُ "سِتَّةٌ" للحصْرِ، وليس للتكثير أو التقريب، فهي ستةُ أيامٍ بالعدد.

لكنَّ مدةَ كلِّ يوم منها لا يعلَمُها إلاّ الله، لأنــه هــو الــذي خَلَقَهــا ويَعلــمُ مقــدارَها، وقد يكوَن كلُّ يومٍ مرحلةً، وقد تكونُ مدةُ هذه المرحلة آلافَ أو ملايــين الســنين، وقــد تكــونُ غيرَ ذلك، لكنها ليستْ كأيامنا المعروفة قطعاً! لأنَّ أيامَنا قصيرة، وطــولُ اليــومِ أربــعٌ وعشــرون ساعة، وهذه الأيامُ ناتجةٌ عن حركةِ الشمسِ والأرض والقمــر، ومــا يترتــبُ علــى ذلــك مــن تعاقب الليلِ والنهار، وهذا كلُّه كانَ بعد الانتهاءِ من خلْقِ السموات والأَرض.

وقد أخبَرنا اللهُ أنه خلقَ الأرضَ في أربعةِ أيام، وخَــلَقَ الســماء في يومــين، قــال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت:٩-١٢]

تُصَرِّحُ الآيةُ بأنَّ اللهَ خلقَ الأرضَ في يوميْن، وهذا خَلْقٌ أوّليٌّ عامٌّ مُجْمَل، ثم فَصَّلَ خَلْقَهــا بعد ذلك تفصيلاً:" وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، ســواء للسائلين."

وقد كانَ الخلْقُ المفصــلُ لــلأرض وتقــديرُ أقواتهــا في يــومَيْن اثنَــيْن، يُضــافان إلى اليومَيْن السابقَيْن في الخلْق المجمل العَامّ، فيكونُ المجموعُ أربعةَ أيــام ذكرَتْهــا الآيــة، وبعــدَ ذلــك خَلَقَ السماءَ في يومين، وجعلَ منها سَبْعَ سموات: "فقضهن سبع سموات في يومين".

واللافتُ للنظرِ أنَّ خَلْقَ الأرض – الصَّــغيرة – اســتغرق أربعــةَ أيّــام، بينمــا خَلْــقُ السموات السبعِ العظيمة استغرق يومَيْن فقط، وهذا من عظــيمِ حكمــةِ الله، فلــو أرادَ خَلْقَهمــا في لحظةٍ لفَعل، لأنَّ أمْرَهَ بينَ الكافِ والنّون، فهــو إذا أرادَ شــيئاً يقــولُ لــه: كُــنْ، فيكــونُ في لحظةٍ كما أرادَ سبحانه.

(٣)
تنظيم الحياة على وجه الأرض

بعدما خلقَ اللهُ الأَرض، جَهَّزَها وهَيَّأها للحياة، لأنه شاءَ سبحانهُ أنْ تكونَ معمورةً مسكونة، يَسكُنها أحياءٌ ويعمرونَها.

جعلَها كوكباً من المجموعةِ الشمسية، هذه المجموعةُ التي هي واحدةٌ من ملايين المجموعاتِ النجمية في هذا الكونِ الفسيح، الممتدِّ بينَ السماءِ والأرض، والذي لا يَعلمُ مساحَتَه ولا عددَ مجموعاته إلاّ الرّبُّ العظيمُ الذي خَلَقَه سبحانه.

جعلَ اللهُ الحكيمُ لكلّ كوكبٍ من المجموعةِ الشمسية مداراً، يسيرُ من خلاله، وجعلَ له سرعةً هائلةً يَسيرها، ووَضَعَ كلَّ كوكب منها في موقعِه المداريّ، بحيثُ لا يَصلحُ له إلاّ ذلك الموقع، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ عنه، وبَرْمَجَ دورانه على عددٍ معيَّن، لا يَزيدُ عليه ولا يُنْقِصُ عنه، كلُّ هذا لتهيئةِ الأَرض للحياة عليها.

جعلَ اللهُ الشمسَ ضياء كتلةً نارية، لا تخمد ولا تَخبو، ولها ارتباط مباشرٌ بالحياة على الأرض، وجعلَ اللهُ القمرَ نوراً، وقدّرَه منازل، وجعلَ لكلٍّ من الشمس والقمر والأرض سرعةً معينة، لا تَزيدُ لا تَنْقُصُ، وذلك من أجلِ استقرار الحياة على الأرض ! ونتجَ عن حركةِ الأرضِ ودورانها حولَ نفسِها الليلُ والنهار، وجعلهما اللهُ متعاقبَيْن، ونتجَ عن دورانِ الأَرضِ حولَ الشمسِ الفصولُ الأربعةُ المعروفة، ولكلّ فصلٍ منها طبيعتُه وملامحُه. قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٣٧-٤٠]

وجعلَ اللهُ الأرضَ قسمين: ماءً ويابسة، وجعلَ حجمَ الماءِ أكبرَ من حجمِ اليابسة، وجعلَ الرياحَ تَهبُّ على الأرض، وتَحملُ معها بُخارَ الماءِ المتصاعدَ من البحارِ والمحيطات، وساق السحابَ إلى الأرض اليابسة، وأنزلَ عليها الماء، لأنه جعلَ من الماءِ كلَّ شيء حيٍّ بحكمتِه سبحانه.

وجعلَ في الأرض الجبالَ رواسي وأوتاداً، تُثَبِّتُ الأرض لئلا تضطربَ وتتحركَ وتميد بالذينَ عليها.

وأمطرَ اللهُ على الأرضِ ما شاءَ من الماء، وأنبتَ به مختلفَ أنواعِ الأشجارِ والزروع والنباتات، وأوجدَ اللهُ الغاباتِ الكثيفة في مختلفِ المواقع، وأثمرت مختلفَ الثمار، وخلقَ اللهُ المخلوقات الحيةَ من الماء، وجعلَها دواباً تدبُّ على وجه الأرض، وتتزاوجُ وتتكاثر وتعيش وتتقاتَل، ويأكلُ بعضها بعضاً، والحياةُ تسيرُ على وجهِ الأرض. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور:٤٥]

وتدلُّ هذه الآيةُ دلالةً صريحةً على أنَّ كلَّ المخلوقاتِ الحيةِ خُلقَتْ من الماء، على اختلافِ أصنافِها وفصائلها وأجناسِها، كالحيوانات التي تمشي على أربع، والطيورِ التي تمشي على رِجلَيْن، والزواحفِ التي تمشي على بطنِها، وعالَمِ الأسماكِ العجيب.

كلٌّ هذا تهيئةٌ وتجهيزٌ لتكونَ الحياةُ بعدَ ذلك على وجْهِ الأرض، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]

ولذلكَ ذَلّلَ اللهُ الأرضَ للإنسان وسَخَّرها له، ليعيشَ عليها ويَمشي في مناكبها. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك:١٥]

(٤)
طبيعة الملائكة وخلقهم من نور

خلقَ اللهُ الجنةَ والنار، وجعلَهما في مكان ما من هذا الوجـودِ الكـبير، الـذي لا يعلـمُ حجْمَه ولا سَعَته إلاّ ربُّ العالمين سبحانه.

والجنةُ طيبة، طيبةٌ أشجارُها وثمارُها وأنهارُهـا، واسـعةٌ بسـاتينُها، عظيمـةٌ قصـورُها، وجمالُها وبهاؤها وروعتُها وحسنُها لا يَعلمُه إلاّ اللهُ سبحانه.

أما النارُ فإنّها موقَدَةٌ مشتعلةٌ متأجِّجَة، لا يَعلَـمُ حرارتَهـا إلاّ خالقُهـا سـبحانه، وجعـلَ الجنةَ دارِ ثوابٍ وجزاءٍ ونعيم، وجعلَ النارَ دارَ جزاءٍ وعقابٍ وعذاب!

بعد ذلك خَلَقَ اللهُ المخلوقاتِ العاقلة الثلاثة: الملائكة، والجنّ، والإِنْس.

خلقَ اللهُ الملائكة، ثم خَلَقَ الجنّ، ثم خَلَقَ الإنس.. وخلقَ الملائكـةَ مـن النـور، وخلـقَ الجنَّ من النار، وخلقَ الإنسانَ من الطين.

روى مسلم {برقم: ٢٩٩٦} عن عائشـةَ رضـي اللهُ عنـها قالَـتْ، قـالَ رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم:" خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ مِـنْ مـارجٍ مـن نـار، وخُلِـقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم..".

والنورُ لطيفٌ شفافٌ مضيءٌ مبارَك، تحبُّـه الـنَّفس، وتـأْنسُ بـه، وتَرتـاحُ إليـه. ولا نَعرفُ شيئاً عن النّور الذي خلقَ اللهُ منه الملائكـة، لا عـن أصـله، و لا عـن طبيعتـه، ولا عـن كيفيةِ خلْقِهم منه، لأنَّ اللهَ لم يُخبِرْنا عن ذلك، فنقول كمـا أخبرنـا رسـولُ الله صـلى الله عليـه وسلم – "خَلَقَهم اللهُ من نور"، ونتركُ تفاصيلَ ذلك إلى اللهِ الخالقِ العليم سبحانه.

و"الملائكةُ" جمعُ "مَلَك". وهم مَفْطورون على طاعة الله وعبادته وذكْره وشكْرِه، لا يَمَلّونَ من الطاعة، ولا يَفْتُرونَ عن العبادة، كما قـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦]

وكما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنبياء:٢٠]

ولا يرتكبُ الملائكةُ أيَّ ذنْبٍ أو معصية، لأنهم مخلوقـونَ مـن النـور، والنـورُ لطيـفٌ إيجابيٌّ مبارك، فلا تهجسُ بهم هواجسُ المعاصي، ومـن ثم لا يَقضْـونَ عليهـا بالمجاهـدةِ والتوبـة،

وهم غيرُ مكلّفين كالإنسِ والجنّ، ومن ثم لا يُحاسَبونَ على أعمالهم، لأنهم عابِدون خِلْقةً وسَجيَّة، لا يَبْذُلون في ذلك جُهداً أو معاناة.

وجعلَ اللهُ بعضَ الملائكةِ مشرفين على الجنةِ وتنْظيمها وتَرْتيبها، كما جعلَ بعضَهم "زبانيةً للنار"، مُشْرفين على تعذيبِ الكفار فيها، وجعلَ بعضَهم حُرّاساً على الناسِ في الدنيا، وكلّفَ بعضَهم بمهماتٍ خاصة على الأرض.

وإمامُ الملائكةِ وأفضلُهم جبريلُ عليه السلام، الذي هو الروحُ القُدُس، والروحُ الأمين، وهو الواسطةُ بين الله ورسله، يَحَملُ الوحَي إلى رسلِ الله عليهم الصلاة والسلام. ومن الملائكةِ الذين عرفنا عنهم: ميكائيلُ وإسرافيل، ورضوانُ خازنُ الجنة، ومالكُ خازنُ النار.

وخلقَ اللهُ الملائكةَ ضخاماً في أبدانِهم وأجسامِهم، وجعلَ لهم أجنحةً يطيرونَ بها، ويتنقّلون بين السماءِ والأرض. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [فاطر: ١]

(٥)
طبيعة الجن وخلقهم من النار

خلقَ اللهُ الجنَّ قبلَ الإنس، وهم مخلوقون من مارجٍ من نار، ودلَّ على ذلك القرآنُ والحديث، وقد سبقَ أنْ سجَّلْنا حديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، الذي قالَ فيه:" وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نار".

والدليلُ على أنَّ الجنَّ خُلِقوا قَبلَ الإنس قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر:٢٦-٢٧]

والشاهد في الآية قولُه: "والجان خلقناه من قبل". أي خلق الله الجان قبل الإنسان.

وخلقَ اللهُ الجنَّ من مارجٍ من نار، وليَس من نارٍ خالصة، بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن:١٤-١٥]

ونارُ السَّمومِ هي النّارُ الحارَّةُ، شديدةُ الحرارة، ومارجُ النارِ هو لهيبُ النارِ المختلط بدخانِها، لأنَّ المرجَ هو الخَلْط، والمريجُ المختلط.

عندما تشتعلُ النار فإنه يخرجُ ضَوؤُها المنبعثُ من الشيء المحترق، ويكونُ فوقه دُخانٌ أسود، كثيفٌ حارّ، فهي أجزاءٌ ثلاثة: الشيُ المحترقُ في الأسفل، ثم النارُ المشتعلةُ في الوَسَط، ثم الدُّخانُ المتصلُ بالنّار، المتصاعدُ منها.

إنَّ الجنَّ لم يُخْلقوا من النارِ فقط، وإنما خُلِقوا من "مارجٍ من نار"، كما صَرحَ بذلك القرآن.

والمارجُ هو الدخانُ الأسودُ الكثيفُ الحارّ، المتصاعدُ من النار، والنارُ حارّةٌ مشتعلةٌ ملتهبة.

أيْ أنَّ اللهَ لما أرادَ خلقَ الجنِ أخَذَ آخرَ جزءٍ من النار، وأخَذَ أوَّلَ جزءٍ من الدخانِ المتصل بها، ومَزَجَهما معاً، وخَلَقَ منهما أول جنيٍّ من عالم الجن، ولهذا اجتمع في الجنِّ عنصران:

الأول: العنصرُ الناريُّ الحارّ، فجاءتْ طبيعةُ الجنِّ طبيعةً ناريّة حارّة.

الثاني: عنصرُ الخفاء والاستتار، الذي يقُررُه الدُّخانُ الأسودُ الكثيف.

فكانت طبيعةُ الجنِّ جامعةً بين العنصرَيْن، أخذوا من النار حرارَتها ونشاطها واشتعالها، وأخذوا من الدخان استاره والتخَفّي خلْفَه.

ولهذا نحنُ لا نَراهم رؤيةً طبيعيةً في الدنيا، بينما هم يروننا، قال تعالى عن الشيطان وجنوده من الجن: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧]

ولأجْل هذه الطبيعة سُميَ هذا الخلْقُ "جِنّا"، وهذا الاسُم ينطبق عليهم تماماً، لأنَّ معنى مادّة الجنِّ في اللغة هو: الاستتارُ والاختفاءُ والتغطية. تقول: جَنَّ عليه الليل. إذا استرَهَ وغَطّاه ولَفّه بظلامه، وسُميت الجَنّةُ جَنّةً: لأنها محجوبةٌ عن عيوننا، فلاَ نَراها في الدنيا، والجَنانُ هو القلب، سُمي بذلك لأنه مستورٌ محجوبٌ عن النظر، والجَنينُ يَستُره رَحِم أُمِّه، فلا يَراه الناسُ من الخارج.

وسُميَ الجنُّ جِنّاً لأنهم محجوبون عن عيوننا، عندهم قدرةٌ على الاستتار والتَّخَفّي.

وهؤلاء الجِنُّ مكلَّفون كالإنس، مُطالبون بالإيمانِ والعملِ الصالح، صالحُهم مُثابٌ في الجَنَّة، وعاصيهم مُعَذَّبٌ في النار، ولذلك هم فريقان: جنٌّ مؤمنون، وجنٌّ كافرون، قال تعالى مخبراً عن تعريف الجنِّ بأنفسهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٤-١٥]

والقاسطون هم الظالمون الكافرون.

(٦)
إبليس والجن والشيطان

عرفنا أنّ اللهَ خلَقَ الَجنَّ قبلَ الإنس، وأنه خلَقَهم من مارجٍ من نار، وأخبرنا اللهُ أنّ إبلَيس كان مخلوقاً قبلَ آدم، وأنه كانَ في الجنةِ مع الملائكة، بدليلِ أنه كان مأموراً بالسجودِ لآدم، ووصَفَه اللهُ بأنه شيطان، وحذّرَنا اللهُ من عداوةِ الشياطين.

ولا بُدَّ هنا من أنْ نُبيِّنَ الفرقَ بين هذه التسمياتِ الثلاثة: الجِنّ وإبليس والشياطين، لأنّ كثيراً من الناسِ يخطئون في التمييزِ بينها، ويَخلطونَ بينَ معانيها.

الجنُّ هم العالَمُ الخاصُّ المقابلُ للإنس، الذينَ خَلَقَهم اللهُ من مارجٍ من نار، وهم قسمان: جنٌّ مؤمنون، وجنٌّ قاسطون كافرون.

أمّا إبليسُ فهو من الجنِّ بنصِّ القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]

وظن بعضهم خطأ أن إبليس من الملائكة، لأنه شمله الأمر بالسجود لآدم! وهذا ظنٌّ باطل وكلامٌ مردود، لأنه يتعارض مع صريح القرآن، فإذا قال الله: "إلا إبليس كان من الجن"، فإنه لا يجوزُ لمسلم بعد ذلك أنْ يَزعم أنه من الملائكة.

ولو كان إبليس من الملائكة لما عصى الله، لأنّ اللهَ خَلَقَ الملائكةَ مفطورينَ على الطاعة فطرة، ويَستحيلُ أن تصدر منهم معصية، واللهُ تعالى يقول: "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون".

ولو كان من الملائكةِ لكان مخلوقاً من النور، مع أنه صَرَّحَ بأنه مخلوقٌ من نار، المادّةِ التي خُلِقَ منها الجن، قال تعالى:" ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢]

أما الشيطانُ فإنه وصْفٌ يُطلَقُ على موصوف، وليس اسماً لشخصٍ أو جنسٍ أو صنف، وهذه الكلمة "شيطان" مشتقّةٌ من "شطَن"، أي ابتعدَ عن طاعةِ الله، وهذا الوصْفُ يُطْلَقُ على كلِّ كافر، لأنه متمردٌ على الله، مبتعدٌ عن رحمته، وهذا الشيطانُ الكافُر عدوٌّ للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦]

والشياطينُ وصْفٌ يطلقْ على كلِّ الكفار، من عالمِ الإنسِ أو من عالمِ الجِنّ، لأنَّ هؤلاء الشياطين ابتعدوا عن رحمةِ الله بكفرِهم.

والخلاصةُ أنَّ "الشياطين" أصنافٌ ثلاثة:

الأول: إبليس: أولُ شيطان، لأنه أول كافرٍ عاصٍ متمرد، وهو إمامُ الشياطين وقائدُهم.

الثاني: الجِنُّ الكفار، الذين أغوَوْا أتْباعهم من الإنس، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٨]

الثالث: الإنس الكفار، فكلُّ كافرٍ من عالم الإنسِ شيطان، مهما كان دينه، ومهما كان سبب كفره، فبما أنه ليس مسلماً فهو شيطانٌ كافر.

وقد أطلق القرآنُ على الإنس والجنِّ الكفارِ شياطين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١١٢]

والجني المؤمنُ لا يُسمى شيطاناً، لأنه مطيعٌ لله، وهو في الآخرة مُنَعَّمٌ في الجنةِ مع الإنسيِّ المؤمن.

(٧)
الإنسان خليفة الله في الأرض

خلقَ اللهُ الملائكة، وخَلَقَ الجنّ، وأراد أنْ يخلقَ صنفاً ثالثاً من المخلوقين العقلاء، ليسكُنوا الأَرض ويعمُروها.

إنه سبحانه وتعالى يَعلمُ أنّ الملائكة غيرُ مُهَيئين لتعمير الأرض، لأنّ تعميرها يَحتاج إلى نفوس عندها رغباتٌ ونوازع، وعندها محبةٌ للتملُّك والتمكُّنِ والسيطرة، وعندها اهتمامٌ بالعملِ والكَدِّ والسعي والاكتساب، وعندها قدرةٌ على المواجهةِ والتحدّي والصّدام والاختلاف، وفيها شهواتٌ وغرائزُ تتوجَّهُ بها نحوَ الدنيا، وإنَّ الملائكة ليس عندهم شيءٌ من ذلك، ولهذا هم غيرُ مُهيئين لتعميرِ الأرضِ والاستخلاف فيها.

لقد خَلَقَ اللهُ الملائكة لعبادته، وفَطَرَهم على طاعته، وجعلَ أجسامَهم مكتفية، لا تَحتاجُ إلى طعام أو شراب، ولا رغبةَ عندهم في الشهوات، فلا يتزوَّجون ولا يتناسلون، ولا يوصفون بذكورةٍ أو أنوثة.

ولا تَوَجُّهَ عندهم للدنيا وتملُّكِها والحرص عليها، ولا اهتمامَ عندهم بتعميرها وإصلاحها واستثمارِها، ولا استعدادَ عندهم للصراعِ والاقتتال عليها، لأنه لا يُشغلُهم شيء عن ذكْرِ اللهِ وعبادتِه، لذلك هم غيرُ مَهيئين للاستخلافِ في الأرض وإنَّ اللهَ الحكيمَ العليمَ يعلمُ ذلك.

وقد هيأ اللهُ الأرضَ لاستقبالِ الخليفة، ففيها مياهُها وجبالُها، وفيها أشجارُها وثمارُها، وفيها حيواناتُها ودوابُّها، وهي تنتظرُ مَنْ يَعْمُرُها ويُصلحها ويُديرُها.

ولقد أخبَرَ اللهُ الملائكةَ عن استخلافِه الخليفة، قبل أنْ يستخلفه، فسألوه مستوضحين عن الحكمة من ذلك، فأحال سبحانه إلى علمه. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠]

كان هذا الصنفُ الثالثُ هو "الإنسُ"، وواحُدهم الإنسان.

الإنسانُ هو الذي يَصلحُ ليكونَ خليفةً للهِ في الأرض، لأنَّ هذا ما يدلُّ عليه ظاهرُ الآية: " إني جاعل في الأرض خليفة "، ولا مانع من قولنا: "الإنسان خليفةُ الله في الأرض".

وجاءَتْ "خليفة" في الآية مُطْلَقَةً غيرَ مُقَيَّدَة، فلم تذكر الآيةُ أنه خليفةٌ لمن؟ أو خليفةٌ عَنْ مَنْ؟

ولم يَرِدْ في القرآن – ولا في الأحاديث الصحيحة المرفوعةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم – نصٌّ صريحٌ يُصرحُ أنَّ الإنسانَ صارَ في الأرضَ خليفةً للجنّ، وأنَّ الجنَّ كانوا يَسكنونَ الأرضَ قبلَ الإنسان، وأنه وقعَتْ بينهم حروبٌ وصراعاتٌ ومعارك، أُفسِدَ في الأرض بسببها، وسُفكَتْ فيها الدماء، وكلُّ ما وردَ من ذلك أقوالٌ غير معتمدة إسلامياً، وتبدو منها رائحةُ الوضعِ والإسرائيليات.

لذلك نُرجحُ أنَّ الإِنسانَ هو أَوَّلُ مَنْ سكنَ الأَرض، وأنَّ الله استخلَفَه فيها، وأمره بإعمارها.

بهذا الاعتبارِ صَحَّ وَصْفُ الإنسان بأنه خليفةُ اللهِ في أرضه، لأنَّ معنى الخلافة في اللغةِ هو النيابةُ عن الغير، إمّا لموته، وإما لغيبته، وإما لتكريم المستخلَف، واللهُ سبحانه قائمٌ على كلِّ شيء، قد أحاطَ بكلِّ شيء علماً، لا تخفى عليه خافية، ولكنَّه جعلَ الإنسان خليفةً له في الأرضِ تكريماً له، مع أنه سبحانه لا يحتاجُ لذلك.

(٨)
سبب تفاوت الناس واختلافهم في ألوانهم وطباعهم

أرادَ اللهُ جعلَ الإنسانِ خليفةً في الأرض، ولذلك خلقَه من ترابِ الأرض، لتكونَ الصلةُ قويةً بينَه وبين الأَرض، والتوافقُ متحققاً بينَه وبينَ الأرض، لأنه دخَلَ كيانَه جزءٌ من الأَرض، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٥]

وشاءَ اللهُ الحكيمُ سبحانَه أنْ يكونَ ترابُ الأرضِ مختلفاً متفاوتاً، في لونِه، وطبيعتِه، لتتوافقَ بقاعُ الأرضِ وتتناسقَ وتتكامل، في إنتاجِ مختلفِ أنواعِ الزروعِ والثمار... فهناكَ ترابٌ أحمر، وهناكَ ترابٌ أسود، وهناكَ ترابٌ أبيض، وهناكَ ترابٌ رماديّ.. وهناكَ ترابٌ سَهل، وهناكَ ترابٌ حَزْنٌ صَعْب، وهناكَ ترابٌ لين، وهناكَ ترابٌ قاسٍ صلْدٌ جامد...

ولما أرادَ اللهُ خلقَ الإنسان الخليفة، أخَذَ قبضةً من ترابِ الأرض، تمثل فيها مختلفُ ألوانِ التراب وخصائصه.

روى أبو داود {برقم: ٥٦٩٣} عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى خلقَ آدمَ من قبضة، قَبَضَها من جميعِ الأرض، فجاءَ بنو آدم على قدْر الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسود، وبينَ ذلك، والسهلُ والحَزْنُ والخبيثُ والطَّيِّب، وبينَ ذلك".

يخبرُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن أسبابِ اختلافِ ألوانِ الناس، واختلافِ طبائعهم وسجاياهم.

إنّ السببَ في ذلك هو اختلافُ ألوانِ التراب، الذي خلقَ اللهُ منه أباهم آدم، فقبضةُ الترابِ التي خَلَقَ منها آدمَ ضَمَّتْ مختلفَ ألوانِ التراب، الأحمرِ والأبيضِ والأسود، وغير ذلك، وتحوَّلتْ ألوانُ الترابِ المختلفة إلى "جينات" وراثية، تنتقل من الآباءِ للأبناء، وأعطى اللهُ الحكيمُ كلَّ سكانِ إقليمٍ من الأَرضِ لونَهم الخاصَّ بِهم، وأعطى كلَّ إنسانٍ لونَه الذي اختارَه له بحكمتِه سبحانه، فهناك أقاليمٌ ألوانُ سكانها سوداء، وهناك أقاليمٌ ألوانُ سكانِها بيضاء، وأُخرى حمراء ، وأُخرى بُنِّيَّة، وهكذا.

إنَّ اللهَ الحكيمَ هو الذي اختارَ لكلِّ أنسانٍ لونَه، ولا إرادةَ لأيِّ إنسانٍ في اختيارِ لونِه، وجعلَ اللهُ اختلافَ ألسنةِ الناسِ وألوانِهم آيةً على عظمتِه ووحدانيته وقدرته. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ

﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢]

لا يفضل الإنسان للونه:

طالما أن لون الإنسان من الجانب اللاّإراديّ في حياته، فلا يَصلحُ أنْ يكونَ أساسَ التفاضل بين بني البشر، لأنّه لا يَجوزُ أنْ يتفاضلَ أُناسٌ بشيء لا دخْلَ لهم فيه، ولا قدرةَ لهم على اختياره، إنما يتفاوتون ويتفاضلونَ في جانبٍ يقومُ على اختيارِهم وجهدِهم وسعيهم، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح والتقوى، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]

وكم ضلّتْ أُممٌ جعلَتْ أساسَ التفاضل اللونَ، ففضّلتْ لونَ أفرادها، واحتقرَتْ ألوانَ أفرادِ آخرين، ومارست ضدَّهم "التمييز العنصري" بأبشعِ صوره.. لقد فضّلت "النازيةُ" في ألمانيا الجنسَ الآريَّ على ما سواه، لأنَّ اللّون الأحمرَ هو الذي يُلَوِّنُ أفراده، وفَضَّل الأمريكانُ الجنسَ الانجلوسكوني على غيره، واحتقروا السودَ في بلادهم، لا لذنبٍ إلا لأنّ لونَهم أسود.

وكما كان الناسُ مختلفين في ألوانهم بسببِ اختلافِ ألوانِ التراب، كذلك كانوا مختلفين في طبائعِهم وشخصياتهم، بسببِ اختلافِ طبيعة ترابِ الأرض!.

هناك تربةٌ سهلةٌ لينة، تتفاعَلُ مع الحرثِ والزرع، وتتشربَ الماء، وتثمرُ أحسنَ الثمار، وهناكَ تربةٌ قاسيةٌ صلدةٌ جامدة، لا تكادُ تدخلها المحاريث، ولا تُحسنُ استقبالَ الماء، ولا تحتضنُ البذورَ والنبات، ولا تصلحُ لشيء.

وطبائعُ النفوس متفاوتة، فهناكَ نفوسٌ سهلةٌ هينَة، هاشَّةٌ باشَّة، تأْلَفُ وتُؤلَف، دائمةُ الابتسامةِ والحيوية، ترتاحُ إليها، وتَسعدُ معها، وتأْنَسُ بالتعامل معها، وهناك نفوسٌ بائسةٌ تعيسةٌ، عابسةٌ جامدة، كأنَّما قُدَّتْ من صخر، تنفرُ منها، وتكرهُ لقاءَها والتعاملَ معها.. وسبحانَ الحكيمِ الخبير، في خَلْقه التربةَ متفاوتةً في ألوانِها وطبيعتها، وفي خلقه الناسَ متفاوتين مختلفين في ألوانِهم وطبائعِهم، وهذا من أوضحِ الآياتِ على وحدانيته.

(٩)
خلق آدم من تراب

آدمُ عليه السلام أبو البَشَر، لأنه أوَّلُ مخلوقٍ من البشر، خَلَقَهُ اللهُ من ترابِ الأرض، مختلفِ الألوانِ والصفات، وسَمَّاهُ "آدَم". قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩]

والراجحُ أنَّ "آدمَ" اسمُ علمٍ أعجمي، لا نَبحثُ له عن معنى في اللغةِ العربية، فهو ليس عربيّاً مشتقّاً، لأنَّ العربَ المتكلّمين باللغة العربية خُلِقوا في شبهِ جزيرةِ العرب بعدَ آدم عليه السلام بآلاف – أو ملايين – السنين.

وقد أخبرنا اللهُ سبحانه عن المراحلِ التي مَرَّ بها خلْقُ آدمَ قبلَ نَفْخ الروحِ فيه، وجعله إنساناً حيّاً، وهذه هي مراحلُ تصيير التراب، من ترابٍ إلى طين، ثم إلى طوبٍ يابسٍ جامد.

فعندمَا ما يُرِيُد الإنسانُ أنْ يَصنعَ "طوبةً" فإنه يأْخُذُ الترابَ الجافّ، ثمَ يخلطهُ بالماءِ فَيَصيرُ طيناً، ثم يَضعهُ في الشمس – أو يُدخِلهُ في النار – حتى يَجِفَّ ويشتَدَّ ويقسو، فيكون طوبةً صلدةً قاسيةً كالحجر.

بهذه المراحلِ تقريباً مَرّ آدمُ عليه السلام.

فقد خَلَقَه اللهُ من تراب، بأنْ أخَذَ قبضةً من ترابِ الأرض، تمثّلَتْ فيها كلُّ ألوانِ وصفات التراب كما بيَّنّا.

ولا ندري من أيِّ بقعة من بقاعِ الأرض أُخِذتْ تلك القبضةُ الترابية، كما لا ندري مَن الذي أخَذَها، ولا كيفَ أخَذَها، ثم كيف صَعَدَ بها إلى الجنة، لا ندري ذلك لأنَّ اللهَ لم يُخبِرْنا عنه، وتَفاصيلُ خلْقِ أبينا آدم من عالَمِ الغيب، ولا يُمكنُ أنْ نعرفَ تلك التفاصيل إلاّ من خلالِ آيات القرآن، أو ما صَحَّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والدليلُ على أنّ اللهَ خلقه من ترابٍ قولهُ تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم:٢٠]

والخطابُ في الآيةِ لبني آدم، وهم مخلوقون عن طريق الزواجِ والتناسل، لكنْ ينطبقُ عليهم ما ينطبقُ على أبيهم آدم عليه السلام، وبما أنَّ أباهم مخلوقٌ من تراب، فهم أيضاً مخلوقون من تراب.

ونصَّ القرآن على أنَّ آدم عليه السلام خُلق من تراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩]

والمفعولُ به "الهاءُ" في قوله "خَلَقَه" تعودُ على آدم عليه السلام. وروى أبو داود [برقم: ٥١١٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب".

(١٠)
تمثال آدم من الطين إلى الصلصال

أخبرنا اللهُ أنه خَلَقَ آدم من "طين"، ولا تعارُضَ بين هذا وبينَ الآيةِ السابقة، فاللهُ أَمَرَ بمزجِ الترابِ بالماءِ فصارَ طيناً. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص:٧١]

وقد كانَ إبليسُ موجوداً في الجنة، يرى مراحلَ خلْقِ آدم ويَتعجَّب، فرأى الترابَ لما جُبِلَ بالماءِ فصارَ طيناً. ولذلك لما سألَه اللهُ بعدَ ذلك عن سببِ عدمِ سجودِه لآدمَ، كان جوابهُ أنه خيرٌ من آدم، لأنَّ آدمَ مخلوقٌ من طين، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢]

وهذا الطينُ "لازبٌ" في آيةٍ أُخرى، هي قولهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات:١١]

واللازبُ هو الثابتُ شديدُ الثبوت، المتماسِكُ الشديدُ الثّخين.

والطينُ اللازبُ ناتجٌ عن الطين الرَّخوِ، حيث زادوا خَلْطَ الطينِ بعضه ببعض، فأصبحَ لازِباً غليظاً كثيفاً، تمهيداً لتجميده وتيبيسه.

وأخبَرنا اللهُ أنه خَلَقَ آدمَ من صلصالٍ من حَمَأ مَسْنون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر:٢٨]

والصلصالُ هو الطينُ الجافُّ اليابس، لأنه مشتَقٌّ من الصلصلة، وهي الصوتُ الشديد، فإذا أَدخلَت المسمارَ في الشيءِ اليابس، فإنه يُخرِجُ صَوْتاً، ويُقال: صلَّ المسمار، أي: أخرجَ صوتاً.

والطينُ اليابسُ صلصال لأنك إذا نَقَرتَه. أو ضربْتَ عليه فإنه يُخرجُ صَوتاً.

والحمأُ هو الطينُ الأسود، والمسْنون هو المتغيِّر، فالحمأُ المسنونُ هو الطينُ الأسودُ المتغيِّر.

وهذه مرحلةٌ تالية، بعدَ مرحلةِ الطينِ اللاّزب، حيثُ تُرِكَ الطينُ اللازبُ الغَليظُ إلى أنْ جَفَّ ويَبِس، فتحوَّلَ إلى طين أسود متغيّر، ولما ازدادَ جَفافُه صارَ يابساً جافاً صلصالاً، فإذا نُقرَ عليه نقرة

خرجَ منه صوت، وبعدَ وصولِ جفافهِ ويبوستهِ غايتَها شُبِّهَ في ذلك بالفخّار، وجاءَ هذا في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن:١٤]

والفخَّارُ هي الجِرارُ والأباريقُ والآنيةُ المصنوعةُ من الطين، حيثُ يؤْخَذُ نوعٌ خاصٌ من التراب، ويُجبَلُ بالماء، ويُحْرَقُ بالنار، فيتماسكُ ويشتَدُّ ويقوى، ويُستفادُ منه في الاستعمالات المنزلية.

وشُبِّهَ الصلصالُ بالفخّار لقوته وتماسكه وشدَّتِه.

وهناكَ وجْهُ شبهِ آخَرَ بين الإنسانِ والفخّار، وهو "التَّفاخُرُ"، فعندما تَنْقُرُ على جَرَّةٍ من الفخار فإنها " تُصَوِّتُ " صوتاً عالياً، وكأنها تفتخرُ بِعُلُوِّ صوتِها، مع أنها فارغةٌ ليس فيها شيء.

والإنسانُ حريصٌ على التفاخرِ والمباهاة، والادِّعاء والزَّهْو، وقد يكون فقيراً من مقوِّمات العلمِ والخُلُق والمعرفةِ والفضل والتقوى والالتزام، ولكنَّه يتفاخرُ ويتباهى، ويَدَّعي ويختال، ويرفعُ صوتَه منتفشاً مُخْتالاً فخوراً !.

فالصلةُ وثيقةٌ بين الفُخّارِ والتَّفاخرِ والإنسانِ المختال، ولهذا شُبِّهَ أصْلُه بالفَخّار: "من صلصال كالفخار".

التوفيق بين الآيات التي أخبرت عن خلق آدم:

وهكذا رأينا أنه لا تعارض بين الآيات التي تحدثَتْ عن خلْق أبينا آدمَ عليه السلام قبل نفخِ الروحِ فيه، وإنما أخبرتْ كُلُّ آيةٍ عن مرحلةٍ من المراحلِ التي مَرَّ بها خَلْقُه.

فأخبرتْ آيةٌ عن مرحلةِ خَلْقِه من تُراب، وأخبرتْ آيةٌ أُخرى عن المرحلةِ الثانية، وهي خلقُه من طين، وأخبرتْ آيةٌ ثالثة عن مرحلة خَلقِه من طين لازب، وأخبرت آيةٌ رابعةٌ عن مرحلةِ خلقه من صلصالٍ من حمأ مسنون، وأخبرتْ آيةٌ خامسةٌ عن مرحلةِ خلْقِه من صلصالٍ كالفخار.

ولا بُدَّ من جمعِ الآياتِ المتفرقة التي تتحدثُ عن هذه المراحل، والنظرِ فيها مجتمعة، لحسن فهمها، وحسنِ استخراج دلالتها.

ولا يَعلمُ إلاّ اللهُ وحدةَ الفترةَ الزمنيةَ لكلِّ مرحلة، وهل هي حقبةٌ أو مُدَّة، كما لا يعلمُ إلا اللهُ مظاهرَ التطوُّر التي جرتْ على هذا الطين اللازب، والصلصال كالفخار، وعوامل التفاعلِ التي فيه، وكانَ اللهُ تعالى هو الذي ينقُلُه من مرحلةٍ إلى أُخرى، فهو الذي خَلَقَه وأوجده من العَدَم، ونقَلَهُ بين هذه المراحل.

(١١)
إبليس يكتشف ضعف تمثال آدم

بعدما مَرَّ خلقُ آدمَ بالمراحل الخمسة: خلقُهُ من تراب، ثم تحويلُ التراب إلى طين، ثم تحويلُ الطين إلى طينٍ لازب، ثم تحويلُ الطين اللازب إلى صلصال من حمأ مسنون، ثم تحويلُ ذلك الصلصال إلى صلصالٍ كالفخّار؛ صارَ آدم "تمثالاً" مُجَسَّماً، وجَسَداً بدونِ روح.

وهذه المرحلةُ هي مرحلةُ "التصوير" تَمهيداً لنفخ الروح فيه، قال تعالى عنها: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف:١١]

الخطابُ في الآيةِ لبني آدم، والحديثُ فيها عن خلْقِ وتصوير أبيهم آدمَ عليه السلام، وقد عَطَفَ مرحلةَ التصويرِ على مرحلةِ الخلق بحرفِ العطف "ثُمّ"، الذي يدلُّ على التَّراخي، والبعد الزمنيِّ بين المرحلتَيْن.

تصوير آدم وتسويته:

والتصوير المذكورُ في الآية تصويرٌ ماديٌّ مجسَّم، فلما خلقَ اللهُ آدمَ من الطينِ اللازبِ وصارَ صلصالاً من حمأ مسنون كالفخار، صَوَّرَه الله، بأنْ جعلَ له أجهزة الجسم البشريِّ المعروفة، الظاهرة والباطنة، تمهيداً لنفخ الروح فيه، جعلَ اللهُ لهذا التمثالِ اليديْن والرجليْن والرأس، بما فيه من العينين والأُذنين والفمِ والأنف، وجعلَ له الجذعَ والظهرَ والبطن، وجعلَ فيه القلبَ والرئتين، والمعدةَ والأمعاء، والأوردةَ والشرايينَ والأعصاب، وغيرَ ذلك، لكنها أجهزةٌ جامدةٌ ليس فيها حياة.

وهذا التصويرُ المجسَّمُ " تسويةٌ " في آيةٍ أُخرى. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:٢٩]

والتسويةُ هنا بمعنى التصوير، وتقومُ على إنشاءِ مختلفِ أجهزةِ الجسم، وتجهيزها وهيئتها للعمل، بعد نفخ الروحِ فيها.

وما جرى لآدم من تصويرٍ قبلَ نفخِ الروحِ فيه يَجري لكلِّ واحدٍ من ذريته، حتى قيام الساعة، والفرقُ بين التصويرين، أنَّ تصويرَ آدم كان خارجياً ظاهراً، فجاءَتْ صورتُه الماديةُ تمثالاً مجسَّماً كبيراً، أما تصويرُ ذريته فإنه يكون داخلَ الرحم، وتكون الصورةُ مصغَّرةً جداً، ولذلك قالَ اللهُ

لكلّ إنسانٍ من ذرية آدم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار:٨]

آدم تمثال ملقى في الجنة:

كان خلقُ آدمَ وتصويرُهُ في الجنة، التي خَلَقَها اللهُ قبلَ تصويره، وبقيَ تمثالُ آدمَ ملقىً في الجنة فترةً زمنية لا يعلمها إلا اللهُ سبحانه.

وقد أخبرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الحلقةِ الأُولى، التي كانت البدايةَ في تركيبِ جسدِ آدمَ المصوَّر، والتي يُبدأ منها تركيبُ أجسامِ بَنيه في الأرحام.

روى البخاري [برقم: ٤٨١٤] ومسلم [برقم: ٢٩٥٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" كلُّ بني آدمَ يأْكُلُهُ التراب، إلا عَجْبُ الذّنَب، منه خُلق، ومنه يُرَكَّب".

وفي لفظٍ آخرَ للحديث:" وليس من الإنسانِ شيءٌ إلاّ يَبْلى، إلاّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذّنب، ومنه يُرَكَّبُ الخلقُ يومَ القيامة".

وعَجْبُ الذّنَبِ هو آخرُ فقرات العمود الفقري، من أسفلِ الظّهر، وهو أصغرُ تلك الفقرات، ومعروفٌ باسم "العصعُص".

لقد كانت بدايةُ خلق آدم من عَجْب الذّنَب، ثم تمت تسويتُه، وأُكملَ تصويرُهُ بعدَ ذلك، لأنّ الحديثَ يقولُ: "منه خُلِقَ"، وهذا عامٌّ يشملُ كلّ إنسان، آدم وبنيه.

وعندما يموتُ الإنسان، ويوضَعُ في قبره، يبلىَ كلُّ شي فيه، ويصيرُ تراباً، إلاّ تلكَ الفقرةُ الصغيرةُ في أسفلِ الظّهر "العُصعُص"، فإن الله شاءَ أنْ لا تبلى، ليُركَّبَّ الخلْقُ منها يومَ القيامة، عندما يشاءُ بعثَ الناس.

إبليس يفكر في تمثال آدم:

كان إبليسُ في الجنة، وكان يرى مراحلَ خلق آدم، تراباً وطيناً، وصلصالاً من حمأ مسنون، وها هو يَراهُ الآنَ تمثالاً مجسَّماً ممدّداً في الجنة ، فتعجبَ منه!

روى مسلم [برقم: ٢٦١١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لما صَوَّر اللهُ آدمَ في الجنة، تركَه ما شاءَ أن يتركَهُ، فجعلَ إبليسُ يطيفُ به، يَنظرُ إليه، فلما رآهُ أجوف، عَرَفَ أنه خَلْقٌ لا يتمالكَ".

لقد أخبرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن بداياتِ الأمرِ بينَ إبليسَ وآدم، والنظرةِ الخاصةِ التي كان ينظرُها إبليسُ لآدم، منذُ أن كان تمثالاً مصَوَّراً بدونِ روح.

إبليسُ ذكيّ، لفتَ نَظَرَه هذا الفعلُ الذي يفعلُهُ الله، هذا الترابُ والطينُ والصلصال، ثم هذا التمثالُ المصوَّر، وأدهشَه ذلك، ولا بدَّ أنْ يصنع اللهُ منه شيئاً، و لا بدَّ أنْ يكونَ لهذا التمثال شأن !.

إذن فلْيُمعن النظَرَ فيه، وليدرسه، وليحاولْ معرفَةَ أجزائه !

صارَ يطيفُ به، وينظرُ إليه، ويتفحصُهُ ويُحلّلُه ويعرفُ مكوِّناته.. ولعلّه لَمسه، ولعلّه نَقَرَ عليه، ولعلّه سمِعَ صوتاً يَصدرُ منه !! لقد رآه أجوف، أي: رآه فارغاً من الداخل!.

نقطة ضعف آدم وبنيه:

إبليس ذكيّ كما قلنا، وقد خرج من ملاحظة فراغِ هذا التمثال من الداخلِ بنتيجة هامة، اعتبرها نقطة الضعفِ الأساسية عند صاحبِ هذا التمثال!.

إنّ كونَه أجوفَ من الداخل يعني أنه "لا يتمالَك"، وهذا الفراغُ من داخله يحولُ بينه وبينَ التمالُك، أيْ أنه لا يستطيعُ أن يَملكَ نفسه عِنْدَ الهزّات، وعند المفاجآت.

لا يَملكُ نفسه عند الغضب لأنه أجوف، ولا يَملكُ نفسَهُ عند الفتنة لأنه أجوف، ولا يملكُ نفسه عند الشهوةِ والإغراء لأنه أجوف،ولا يملكُ نفسه عند زخارف الدنيا، لأنه أجوف...

وهكذا عرفَ إبليسُ "الذّكيّ الماكر" نقطة ضعفِ صاحبِ هذا التمثال، وقد احتفظ بهذا الاكتشافِ الخطيرِ لنفسه، ليُحسنَ الاستفادةَ منه في المستقبل، إذا احتاجَ إليه.

ولما جرى ما جرى بينَه وبينَ آدم فيما بعد، دَخَلَ عليه من هذا الباب، من كونِه "أجوفَ لا يتمالك".

وهو يَدخلُ على بنيه من هذا الباب، إنّ كونَ الناسِ لا يتمالكون هو نقطة ضعفهم، ومنها يدخُل الشيطانُ إليهم ليُغْويهم، يُغوي الشيطانُ الذي لا يتمالكُ عند الغضب، والذي لا يتمالَكُ عند الإغراء، والذي لا يتمالك عند الشهوة، والذي لا يتمالكُ عند الدنيا، والذي لا يتمالكُ عند المحنة والشدة.. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٦-٢٨]

(١٢)
الملائكة يسألون عن حكمة استخلاف آدم

في الفترةِ التي كان فيها تمثالُ آدمَ المصور ملقى في الجنة، وقبلَ نفخِ الروحِ فيه، أخبرَ اللهُ الملائكةَ أنه سيجعلُ في الأرضِ خليفة. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠]

وعَبَّرَ عن الأمرِ المستقبليِّ باسم الفاعل "جاعلٌ"، الدالّ على الثبوت والاستقرار، ولم يُعَبِّر بالفعل المضارع:"سأجعل" الدالّ على ما سيحدث، لأنَّ الأمرَ ثابتٌ مستقرٌّ مفروغٌ منه، ولا رادَّ له، لأنّ ما أراده اللهُ واقع، فبما أنه سبحانه قَدَّرَ ذلك وأرادَه، فقد اختارَ له كلمةً تدلُّ على الإنجاز والتحقيق، ولذلك قال "إني جاعل".

والمرادُ بالأرض في الآية الأرضُ المعروفة، التي خَلَقَها اللهُ وهيَّأها، وجَهَّزَها لحياة الخليفةِ عليها، بما فيها من مظاهرِ الحياةِ المختلفة.

وتدلُّ جملةُ "إني جاعل في الأرض خليفة" على أنَّ هذا الخليفةَ ستكونُ إقامتُه في الجنة مؤقّتة، لأنه لم يُخْلَقْ للإقامة فيها في الفترة الأولى من حياته، إنما خلُق ليكونَ خليفةً في الأرض، وليسكنَ في الأرض، وليعمُرَها ويُصلحَها!.

قالَ اللهُ هذا القولَ للملائكة، من بابِ الإعلامِ والإخبار، أي أنه أخبرَهم عن ما سيفعُله سبحانه، ليكونَ عندَهم علمٌ وخبرٌ به.

معنى سؤال الملائكة:

سمع الملائكة كلام الله لهم، وعرفوا الخليفة الذي سيكونُ في الأرض، ولذلك سألوا الله:" قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"؟

الاستفهامُ في قوله:"أتجعل فيها" بقصدِ العلمِ والمعرفة، وليس بقصدِ الإنكار، لأنَّ الملائكةَ لا يُنكرونَ على الله فعله، ولا يعترضون عليه، فهم متأدبونَ مع الله، كما قال الله عنهم:" لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنبياء:٢٧]

أي أنهم لا يتقدَّمون عليه، ولا يسبقونهُ، ولاَ يعترضونَ عليه، ولا يُنكرونَ فعْلَهُ، فاللهُ خَلَقَهم لعبادتِه وطاعتِه وتسبيحِه.

كلُّ ما في الأمر أنهم فَهِموا مـن كـلامِ الله لهـم: " إني جاعـل في الأرض خليفـة "، أنّ هذا المخلوقَ أمامَهم سيكونُ خليفةً في الأرض، فـأرادوا أنْ يَعرفـوا مـن اللهِ حكمـةَ اسـتخلافهِ لهذا الخليفة.

وكأنهم بسؤالِهم يقولون: يا ربَّنا نعلمُ أنك العلـيمُ الحكـيم، وأنـه لا خطـأ في أمـرك وإرادتك وفعلك، فبما أنك ستجعلُ هذا المخلوقَ خليفةً في الأرض فهـذا هـو الصـواب، ونحـن نوقنُ بذلك، لكننا نُريدُ أنْ نَعرفَ الحكمةَ من هذا الاستخلاف، ليكونَ لنا علْمٌ بها !.

ولما سألوا اللهَ مستعلِمين، ذَكروا في سؤالِهم مـا سـينتجُ عـن هـذا الاسـتخلاف مـن مفاسد:" قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟.

لقد قارنَ الملائكةُ بين ما هم عليه، وما سيصدرُ عن هذا الخليفة.

هم عابدون لله، يسبِّحون بحمده، ويُقَدِّسونَ له، وحيـاتُهم كلُّهـا تقـومُ علـى عبـادة الله وذكره، لا يَملونَّ من ذلك ولا يفتُرون ولا يتعَبون !.

وكأنهم في حديثِهم عن أنفسـهم، يظنّـونَ أنَّ أيَّ مخلـوق عاقـلٍ يخلقُـهُ اللهُ لا بـدَّ أنْ يكونَ مثلَهم في عبادةِ الله وذكره وتسبيحه، وأنه لا يجوزُ أنْ يتوقَّـفَ عـن ذلـك فتـرة، وأنـه لا معنى لحياةِ أي مخلوقِ عاقـلٍ إلاّ عبـادةُ اللهِ وذكـرُهُ وتسـبيحُهُ، وهـذا الخليفـةُ في الأرضِ لـنْ يكونَ مثلَهم في هذه العبادة، فكيفَ يكونُ خليفة؟ طلبوا من الله معرفةَ الحكمة من ذلك.

الملائكة لا يعترضون على الله:

لا يفهم من قولهم:" ونحن نسبح بحمدك ونقدس لـك" أنهـم طمعـوا هـم بالخلافـةِ في الأرض، واستشرفتْها نفوسُهم، وهَفَتْ لها قلوبُهم، وكأنهم يقولـون: لمـاذا لا تجعلنـا نحـن خلفـاءَ في الأرض؟ فنحنُ أوْلى من غيرنا بالخلافة، لأننا أفضـلُ منـه، فهـو سيُفسـدُ ويسـفكُ الـدماء، ونحنُ عابدونَ ذاكِرون مسبِّحون، فاستخلفنا نحن، ولا تستَخلفه هو!.

لا يُفهمُ من كلامِهم هـذا الفهـم، لأنهـم لـو أرادوه لكـانوا معترضـين علـى الله، مستدْركين على إرادته، وحاشاهم من ذلك، كما ذكَرنا قبلَ قليل!.

ثم إنَّ اللهَ فطرَهم على عدم الميل إلى التملـك والخلـودِ والانتفـاع في الـدنيا، فهـم لا يُريدونَ استخلافاً ولا تملكاً ولا دنيا ولا حاجة، وكـلُّ اهتمامـاهم وتطلُّعـاتِهم موجَّهَـةٌ لشـيء واحدٍ هو عبادةُ الله وذكرُه.

(١٣)
الخلافة والإفساد وسفك الدماء

لما سألَ الملائكةُ ربهم عن حكمة استخلافِه الخليفــة في الأَرض، ذكــروا في ســؤالهم مــا سيفعلهُ هذا الخليفة، فقالوا:" أتجعل فيها من يفســد فيهــا ويســفك الــدماء؟" أي ســينتجُ عــن استخلافِ هذا الخليفةِ الإفسادُ في الأرض وسفكُ الدماء.

والسؤالُ الآن: كيف عرفَ الملائكةُ ذلك؟

لقد سبقَ أن ذكرنا أنّ الراجحَ من خلالِ آيــاتِ القــرآن، أنَّ الأرَضَ لم يســكنها أحــدٌ من المخلوقين العقلاء قبل آدم، وأنّ المخلوقات الحيةَ علــى الأرض كانــت الحيوانــاتِ والــدوابَّ وغيرها، وهذه ليستْ عاقلةً ولا مكَلَّفَة.

وكانت الأرضُ جاهزةً مهيّأةً لاستقبالِ الخليفة، الــذي ســيعمُرُها هــو وذريتُــهُ، فلــم يحصل فيها إفسادٌ ولا سفكٌ للدماء، فكيف عرفت الملائكةُ ذلك؟

ولا نلتفتُ هنا للأســاطير والإســرائيليات الباطلــة، الــتي تــزعمُ أنَّ الأرضَ كانــت مسكونةً قبل آدم بصنفين من المخلوقاتِ الحيــة، همــا: الجــنُّ والحــنُّ، وأنهــا وقعــتْ حــروبٌ ومعاركُ بين الجنِّ والحنِّ، وقَتَلَ بعضُهم بعضاً، وحصــلَ الإفســادُ في الأرض، وسُــفكت الــدماء، وأنّ الله أنزلَ إبليس – وكان اسمهُ "عزازيل"- يقودُ مجموعــة مــن الملائكــة، لفَــضِّ الاشــتباكاتِ والفصلِ بين المتقاتِلين ! وأنه نجحَ في ذلك، وانهــزَم الجِــنُّ إلى رؤوس الجبــال وجُــزُرِ المحيطــات، وأنَّهُ أُبيدَ "الحنُّ" نهائياً !! .

لا نلتفتُ لهذه الأَباطيل، ولا نَدري من أينَ جاءَ مُرَوِّجــو الإِســرائيليات بهــا، ولا مَــن الذي ذَكَرَها لهم، كلُّ ما نقولُه أننا لا نقبلُها، لأنهُ لم يَــرِدْ في القــرآنِ والســنة الصــحيحة دليــلٌ عليها !.

من أين عرفت الملائكة إفساد الخليفة؟

من أين عرفت الملائكة ذلك؟ بما أنه لم يَحصــلْ في الأَرضِ إفســادٌ ولا ســفكٌ للــدماء، ولم يسكن في الأَرضِ ساكنٌ حتى الآن !!.

نقول: لعلَّ الملائكَةَ توقَّعــوا ذلــك بفراســتِهم الإيمانيــةِ النافــذة، وبصــيرتِهم القويــةِ اللّمَاحة، وفطنتِهم الفطريةِ الفاعلة، فقد شاهَدوا المراحلَ التي مَرَّ بهــا خلــقُ تمثــالِ آدم، شــاهَدوه عندما أُخذتْ قبضةٌ من ترابِ الأَرض، فصُنع منها التمثــال، والتــرابُ عنصــرٌ أرضــيٌّ ســفليّ،

يَدعو للانحطاط والانحدار! وهم مخلوقون مـن نـور، والنـورُ عنصـرٌ رفيـعٌ متـألّق، يَـدعو إلى السّموِّ والإشراق والارتفاع، وشتّانَ بين العنصرِ النورانيِّ السامق، والعنصرِ التُّرابيِّ الهابط !

وبما أنَّ هذا الخليفةَ مخلوقٌ مـن تُـرابِ الأرض، فسـوفَ يَحِـنُّ إلى أصـله، وسـوفَ يجذبُه الترابُ إليه، هو لا يتمالَكُ نفسـه وأعصـابَه وكيانَـه عنـد الفتنـةِ أو المحنـة، أو الإغـراء والشهوة، ولذلك سيهبطُ إلى الأرض، ويرتكسُ فيها، وعنـد ذلـك سُيفسـدُ في الأرض بـدلَ أنْ يَعْمُرها، وسَيسفكُ الدماءَ بدلَ أنْ يُحافظَ عليها .

نقول: لعلَّ هذا ما توقّعوه من الخليفة بفراسـتهم الإيمانيـة، أو لعلّهـم سـألوا اللهَ عـن ما سيكونُ من هذا الخليفة في المستقبل على الأرض، فأخبرهم أنه سـيكونُ منـه إفسـادٌ وسـفكٌ للدماء، فسألوهُ عن حكمةِ استخلافه مع ما سيفعلهُ من شرور !.

لعلَّ هذا، ولعلَّ ذاك، ولعلَّ هناك تفسيرٌ آخر لا نعلمُه، ونُقدمُ هـذا مـن بـابِ النظـرِ والاجتهادِ والتأويلِ والاحتمال، لا من بابِ الجـزمِ والـيقين، لأننـا لا نملـكُ أدلـةً في الجـزم، ونُقدمُ هذا الاحتمال من بابِ غلبةِ الظّن، والله أعلم!

ولقد كانَ ما توقّعه الملائكةُ من الخليفةِ صـحيحاً، بـدليل أنَّ اللهَ لم يَخطِّـئهم فيـه، فلـم يقل: لا لن يُفسدَ في الأرض، ولن يسفكَ الـدماء ! واكتفـى بالإحالـةِ علـى علمـه:" قـال إني أعلم ما لاتعلمون"، ثم بَيَّنَ لهم حكمةَ استخلافه للخليفـة رغـمَ الإفسـاد وسـفك الـدماء بعـدَ ذلك !!.

الإفساد وسفك الدماء من لوازم تعمير الأرض:

الذي سُيفسدُ في الأرضِ ويسفكُ الـدماءَ لـيس هـو الخليفـةَ الأولَ آدمَ أبـا البشـرِ عليه السلام، لأنه نبيٌّ صالحٌ مصلح، إنمـا سيحصـلُ ذلـكَ مـن الكـثيرين مـن ذريتـه، وهـم الكافرون الظالمون.

وإنَّ الإفسادَ في الأرضَ وسفْكَ الدماءِ من لـوازم الخلافـةِ في الأرض، وضـريبةٌ لا بـدَّ منها، لأنَّ النـاسَ عنـدما يُسـتخلفون علـى الأرض سـيختَلفون ويتَنـازعون، وسيتصـادمون ويتقاتلون، وستعارضُ مصالحُهم وتتصادمُ أهواؤهُم، كـلٌ يريـدُ مـا يحقـقُ مصـلحتَه وشـهوتَه وهَواه.. وعندما يحصلُ ذلك سيتحققُ الفسـادُ في الأرض، وتخريـبُ بعـضِ مـا فيهـا في معمعـةِ الصراع، وستُسفكُ الدماءُ الكـثيرة، الـتي تُقَـدَّمُ علـى مـذابح إرضـاءِ المصـالح والأهـواءِ والشهوات.

لكنَّ هذه الضريبةَ لا بُدَّ منها، وهذا الشَّرُّ حتمي لا إيقافَ له... ولكنه ليس كلَّ شيء، حيثُ سيكونَ هناك إعمارٌ للأرض، واهتمامٌ بها، واستخراجٌ لكنوزِها، واستثمارٌ لخيراتها، وهذا خيرٌ كثير، يَصغُرُ بجانبه الشرُّ الجزئيُّ المتمثلُ في الإفسادِ وسفكِ الدماء، ويَقِلُّ ويتَضاءل، ويُنظَرُ له على أنه شرٌّ لا بُدَّ منه، لتحقيقِ الخلافةِ والحصولِ على الخيرِ الكثير!!

لذلك الخلافة ليست للملائكة:

لقد كانت بصيرةُ الملائكةِ نافذةً، عندما توقَّعوا هذا الشَّرَّ من الخلفاءِ البشر، وكان الله حكيماً عندما عَلِمَ ذلك وشاءَه وأرادَه، فردَّ على الملائكة قائلاً:" إني أعلم ما لا تعلمون".

وهذا معنى ما قَررناهُ سابقاً، من أنَّ الملائكة غيرُ مهيَّئين فطريّاً ولا فكريّاً ولا نفسيّاً للاستخلافِ في الأرض، لأنهم أجسامٌ نورانيةٌ شفافة، لا إقبالَ لها على الدّنيا، ولا اهتمامَ لها بالتملكِ والتحصيل، وكلُّ توجُّهها إنما هو نحو عبادةِ اللهِ وذكْرِه وشكْرِه...

ولو جعلَ اللهُ الملائكةَ خلفاءَ في الأرضِ، لما تَمَّ تعميرُها، واستخراجُ ذخائرها، واستثمارُ كنوزها وخيراتِها، لأنَّ كلَّ "مَلَك" من الملائكةِ سيزهدُ في الدنيا، وينصرفُ إلى عبادتِه وذكرِه للّه، وبذلك تتوقفُ الحركةُ على الأرض !.

ولذلك شاءَ اللهُ العليمُ الحكيمُ أن يكونَ عند الخلفاءِ الجددِ اهتمامٌ في تعمير الأرض، وحرصٌ على تملُّكِ ما فيها، وإقبال كبيرٌ عليها.. وبذلك تنشطُ الحركةُ على الأرض، وتتزاحمُ الأقدام، وتتشابكُ المشاريعُ والمخطّطات، ويتدافعُ الناسُ ويتعاركون، وهذا التدافعُ والتعاركُ ضروريٌّ لصلاح الأرض، وصدق الله القائل:﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥١]

(١٤)

الروح التي نفخها الله في آدم

بقيَ تمثالُ آدمَ المصوَّرُ ملقىً في الجنــة مــدةً زمنيــةً، لا يعلمُهــا إلاّ اللهُ ســبحانه، وقــد طافَ إبليسُ بــهذا التمثال وعرفَ نقطةَ ضعفه، وهو أنه أجوفُ لا يتمالك!.

بعد ذلك شاءَ اللهُ العليمُ الحكيمُ أنْ يجعل هذا التمثالَ المجسَّم حيّاً، فأخبر الملائكــة بــذلك، وطالبهم أن ينتظروا إحياءَه، فإذا رأوا أنَّ اللهَ نفخَ فيه من روحِه، فعليهم أنْ يســجدوا لــه، قــال تعالــــى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص:٧١-٧٢]

لقد نفخَ اللهُ في هذا التمثالِ المجسَّمِ من روحِه، فدبّتْ فيــه الحيــاة، وصــارَ إنســاناً حيّــاً متحركاً.

(من روحي): بيانية وليست تبعيضية:

حرفُ الجرّ "من" في قوله "من روحي" للبيــان ولــيسَ للتبعــيض، لا يمكــنُ أنْ تكــونَ "من" تبعيضية، لأنَّ هذا يتعارضُ مع العقيدة الإسلاميةِ الواضــحة، فــاللهُ ســبحانهُ لــيس كمثلــه شيء، وهو السميع البصير، له صفاتُ الكمالِ والجلالِ والعظمة.

وهو الخالقُ لكلّ شيء، وكل ما سواه مخلوق، وهــذا معنــاه أنَّ الــروح الــتي نفخهــا الله في آدم مخلوقة، هو الذي خلقها سبحانه، وهــذا معنــاه أن هــذه الــروح المخلوقــة ليســتْ "جزءاً" من ذات الله سبحانه.

وهذا معنى قولنا: يَستحيلُ في العقيدةِ أن تكــونَ "مــن" تبعيضــية، لأنهــا لــو كانــتْ كذلك لكانت هذه الروحُ التي في آدم "قطعــةً" مــن روحِ الله، وجُــزءاً وقســماً مــن روح الله، اقتطعهُ اللهُ من ذاته، وجعلَه في جسمِ آدمَ، فالذي في آدم جزءٌ من الله !!.

وهل "ذاتُ" الله سبحانَه يُمكنُ أنْ تتجــزّأ وتتــبعَّض، وتنقســمَ إلى أقســام، ليــدخلَ في جسم آدم جزءٌ منها؟ إنَّ هذا مرفوضٌ عقلاً، ومتعارضٌ مع عقيدتنا الإسلامية الصافية!.

ولذلك نقول: إنّ "من" في قوله" ونفخت فيــه مــن روحــي" بيانيــةٌ، وهــي تُبــيِّنُ أنَّ الروحَ التي جَعَلَها اللهُ في آدم من عندهِ هو، أيْ أنه هو الــذي خَلَقَهــا، والــذي نَفَخَهَــا في آدم.

ولذلك أضافَ تلك الروح إليه: "من روحي"، وهذه إضافةُ تكريمٍ لتلك الروح، وهي كإضافة ناقة صالحٍ عليه السلام إلى الله في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف:٧٣]

وكإضافة البيت المحرّم- الكعبة – إلى اللهِ في قولِ إبراهيم عليه السلام :" عند بيتك المحرم".

قال تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٧]

وقد أخطأَ النصارى في نظرتِهم إلى الروحِ التي نفخها اللهُ في فرجِ مريمَ رضي الله عنها، فخلقَ منها عيسى عليه السلام، حيثُ اعتبروا هذه الروحَ "جزءاً" من روح الله ! أي أنَّ حرف "من" في قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم:١٢] تبعيضية، وذلك بأن أعطى اللهُ جبريلَ "قطعة" من روحِه، منفصلةً عنه، وأمره أن ينفخها في مريم، فكانَ منها عيسى!!.

أي: الروحُ التي في عيسى عليه السلام جزءٌ من روح الله، ولهذا اعتبره النصارى أبناً لله .. وأساسُ خطئِهم وانحرافِهم أنهم اعتبروا "مِن" في قوله "من روحنا" تبعيضية..

إنَّ الروحَ التي نفخَها اللهُ في آدم مخلوقة، خَلَقَها الله، وهي من عند الله، والروحَ التي خَلَقَ الله بها عيسى عليه السلام في رحمِ أُمِّه مخلوقة، من عندِ الله، وحرفُ الجَرِّ "من" في الموضعين للبيان وليس للتبعيض.

وهذه الروحُ التي خلقَ اللهُ بها آدمَ أبا البشر، هي الروحُ التي يخلقُ اللهُ بها ذريته في بطونِ أمهاتِهم !.

وهذه الروحُ سرٌّ غيبيّ، لا يعلمُ كيفيتها ولا كُنهها ولا ماهيتَها إلاّ الذي خَلَقَها، استأثرَ بالعلم بها، وحجبَ هذا العلم عن خلقه. قال تعالى:" ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الاسراء:٨٥]

ونحنُ البشرُ قد نعرفُ بعضَ آثار وجودِ الروحِ عنـــد الإنســـان الحـــيّ، ونعـــرفُ بعـــضَ آثار خروج الروحِ منه عند الموت، لكننا لـــن نعـــرف ماهيتـــها ولا طبيعتـــها، وســـيبقى الإنســـانُ عاجزاً عن معرفة ذلك، مهما تقدم علمُه واختراعاته، حتى قيام الساعة.

(١٥)
الإنسان بين حاجات الجسد وأشواق الروح

نفخَ اللهُ في آدمَ عليه السلام من روحِــه، فــدَّبت فيــه الحيــاة، وصــارَ إنســاناً حَيّــاً متحركاً.

وهذا معناهُ أنَّ اللهَ الحكيم شاءَ أنْ يَخلقَ الإنسانَ من عنصرين متكاملين:

الأول: العنصرُ الماديُّ: وهو الجسمُ الذي صورهُ اللهُ فيــه، والمتمثّــلُ في التمثــالِ الــذي صنعَهَ اللهُ لأبيه آدم أبي البشر، وهذا التمثالُ من ترابِ الأرض، أي: جســمُ الإنســانِ الــذي هــو العنصرُ الماديُّ من كيانه، مخلوقٌ من الأرض، وهذا العنصــرُ حاجاتــهُ ماديّــة، وهــي موجــودةٌ في الأرض، وتتمثلُ في الطعام والشرابِ والمالِ والمتــاعِ والشــهوات، وهــذه كلُّهــا أمــورٌ ماديــة، يمكنُ تحصيلُها من الأرض، التي سَخَّرها اللهُ وما فيها للإنسان.

الثاني: العنصر الروحي: وهو الــروحُ الــتي نفخَهــا اللهُ في تمثــالِ آدم، وهــي نفســها الروحُ التي ينفخهُا في أجسادِ ذريتِه وهــم في بطــونِ أمهــاتهم، وهــذه الــروحُ ليســتْ ماديــةً محسوسةً كالجسد، وإنما هي شفّافةٌ مشرقة، ونورانيةٌ رفافةٌ مشعَّةٌ!.

وحاجاتُ هذه الروحِ ليســت ماديــة، ولا موجــودةً في بــاطنِ الأرض ومنتوجاتهــا، إن لهذه الروحِ أشواقها وإشراقاتها، وهذه معانٍ إيمانيةٌ معنوية، لا يحقّقُهــا إلا الإيمــانُ بــاللهِ، والإقبــالُ عليه، والاستمتاعُ بذكره، والاستغراقُ في عبادته.

التوازن بين المادي والروحي في الإنسان:

العنصر المادي في الإنســان يشــدُّ الإنســانَ إلى أســفل، إلى الأرضِ وترابهــا وطينــها، والعنصرُ الروحيُّ في الإنسان يرتقي به إلى أعلى، إلى السموِّ والرفعــةِ والتســامي والعلــوّ، حيــثُ النظافةُ والطهرُ والشفافيةُ والتألُّق.

وإنَّ اللهَ الحكيم يعلم أنَّ للعنصر الماديِّ في الإنسان حاجاتِه ومتطلباته، فلم يمنعْه منــها، لأنَّ هذا ضروريٌّ للخلافةِ في الأرض، إنه لا يستغني عن طعامه وشرابه وهوائه ومائه، وأرضه وممتلكاتــه، وماله وشهواته، فلم يحُرم اللهُ عليه ذلك، وإنما ضبطهُ بضوابط شرعية، وجعلَ له حُدوداً يتحركُ بــها، وحدّدَ له إطاراً، داخلُه حلالٌ أذن له بالتجوال من خلاله، وخارجهُ حرامٌ منعه من تجــاوزه وتَعَدّيــه. ليأكل الحلال، ويَشرب الحلال، ويَتملك الحلال، ويقتني الحلال، ويَتزوج ويقضي شهوته بــالحلال.. ولْيستغن بالحلال عن الحرام، قال تعــالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤]

وقد جعلَ اللهُ الحكيمُ للعنصر الروحيِّ أشواقَهُ وأفراحَه وتطلعاته، ودعا الإنسان إلى الارتقاء بها، وتحقيق حاجاتها، وَرَبَطَ روحَ الإنسانِ بالإيمان به، وجعلَ متعتها في عبادتِه وذكْره ومناجاته.

ووازنَ الإسلامُ موازنةً دقيقةً بين حاجاتِ الجسدِ وأشواقِ الروح، ودعاَ إلى إعطاءِ كلِّ عنصر حقَّه، بينما دَمَّر المادّيون كيانهم البشري، عندما "رتعوا" في المادةِ والشهوات، وأغرقوا كيانهم في أوحالِ المادة ومستنقعات الشهوة، وقضوا على هُتافِ الروح وأشواقِ الفطرة .. كما دَمَّرَ الرهبانيون كيانَهم البشريَّ عندما حاربوا حاجات العنصر الماديّ، وحاولوا اقتلاعَها فعجزوا، وأشبعوها بالحرام !! وكانَ الإسلامُ هو الدينَ الوَسَط، الذي رضيَهُ اللهُ لنا ديناً، والذي "وازَنَ" بدقةٍ بين العنصرَيْن المتكاملَيْن في الكيانِ الإنساني، العنصرِ الماديِّ الذي ضبط له حاجاته والعنصر الروحي الذي أطلقَ له أشواقه.

وهذان العنصران تحقّقا في آدمَ أبي البشر، ودلَّ عليهما قولهُ تعالى: قال تعالى : ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص:٧١-٧٢].

العنصرُ الماديُّ في قوله: "خالق بشراً من طين"، والعنصر الروحي في قوله: "ونفخت فيه من روحي..".

(١٦)

أول قول وفعل لآدم

متى نفخَ اللهُ الروحَ في آدم؟ وماذا فعلَ بعدَ نفخِ الروحِ فيه؟ وماذا قالَ للملائكة؟

يَجيبُنا على ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

روى الترمذي [برقم: ٣٣٦٨] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لما خَلَقَ اللهُ آدم، ونَفَخَ فيه الروحَ عَطَس، فقال الحمدُ الله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمُكَ اللهُ يا آدم..."

يُخبرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنه لما دبَّت الروحُ في آدم، وَسَرتْ في جسمه عَطَس !.

ولعلَّ هذه ":العَطْسَةَ" اللاّإرادية كانتْ لتنشيط جسمهِ ونَفْضه وهَزِّه وتحريكه، وهكذا تكونُ العطسةُ العاديةُ غيرُ المَرَضية للإنسان، فإذا ما تعرضَ الجسمُ أحياناً إلى أشعة الشمس بصورةٍ مفاجئة، فإنه يَعطسُ عطَاساً بيولوجيّاً لا إِراديّاً، فيكونُ هذا بمثابةِ نفضٍ وهَزٍّ وتَنظيفٍ للرأس، وما فيه من دماغ وأعصابٍ وحواسّ!.

وهذا العطاسُ نعمةٌ ورحمةٌ من الله سبحانه، واللافتُ للنظرِ أنَّ كُلَّ مَنْ يعطسُ فإنه يُغمضُ عينيه بصورةٍ فطريةٍ بدونِ تفكير، فالله هو الذي أَمَرَ الدماغَ بإرسالِ إشارته إلى العَينينْ لتُغمضا عندَ العطاس، ولعلَّ العينين تنفجرانِ إذا عطسَ الإنسانُ وهو مفتوحُ العينين!.

وبدءُ حياةِ أبينا آدم عليه السلام بعطسة .. بدءٌ عَجيبٌ مثير، يتناسبُ مع الواحد من أبنائه، حيثُ يبدأُ حياته عند ولادته بصرخة.. آدمُ بدءَ حياتَه بعطسة، والواحدُ منا يبدأُ حياتَه بصرخة !! وسبحان الله الحكيم.

آدم يحمد الله ويسلم على الملائكة:

ألهم الله آدم عليه السلام عندما عطسَ أن يحمَده، فقال "الحمدُ لله" فقالَ اللهُ له: يرحُمكَ اللهُ يا آدم.

وهذا إلهامٌ حكيمٌ من الله سبحانه، وهو يدلُّ على أنَّ العُطاس – غيرَ المَرَضيّ – نعمةٌ عظيمةٌ من اللهِ سبحانه، يُنعمُ بها على عبادِهِ، ولا بدَّ للمسلم من أنْ يستشعر هذه النعمةَ الربانية، فيتوجَّهَ بالحمدِ لله، على ما أنعمَ به عليه من هذه النعمة، وهذا يدلُّ على أهميةِ العطاسِ التنشيطية لأعصابِ المسلم وكيانِه !.. ثم هو يحمدُ اللهَ على هذه النعمة، لأنَّ

الله أعطاهُ إيجابياتِ العطاس، ونَجّاهُ من سلبياتهِ وأخْطاره، فلم تتفجَّرْ حواسُّه أو شرايينُه وأوردتُه من ذلك العطاس.

وأمرٌ مقصودٌ أن يُلهم اللهُ آدمَ حَمْدَه عندما عطس، وبذلك كانت أولُ كلمة نطقَ بها آدمُ ذكراً لله سبحانه، أي أفْتُتحَ تاريخُ البشريةِ بأولِ كلمةٍ نطقَ بها آدم عليه السلام، فكانت ذكراً وحمداً منه لله ربِّ العالمين، وهذه بدايةٌ إيمانيةٌ مقصودة، أرادها اللهُ الحكيمُ سبحانه!.

وأخبَرنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّ نفخَ الروحِ في آدمَ كانَ في يومِ الجمعة. روى مسلم [برقم:٨٥٤] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشمسُ يومُ الجمعة، فيه خُلقَ آدم، وفيه أُدخلَ الجنَّة، وفيه أُخرجَ منها".

ودلَّ هذا الحديثُ على فضل يومِ الجمعة، باعتبارهِ أفضلَ أيّام الأُسبوع، وهو خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشمس.

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوَّلِ عملٍ قامَ به آدمُ عليه السلام بعدما دبَّتْ فيه الحياة، فقد روى البخاريُّ (برقم:٣٣٢٦) ومسلمٌ (برقم: ٢٨٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خَلَقَ اللهُ آدمَ قالَ له: اذْهَبْ، فَسَلِّمْ على أُولئكَ النفرِ من الملائكة، فاستمع ما يُحَيّونَك، فإنها تحيتك ، وتحيةُ ذريتك. فذهبَ فقال: السلامُ عليكم!.

فقالوا: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله !"

وهكذا جعلَ اللهُ السلامَ المباركَ تحيةً متبادلةً بين المسلمين حتى قيام الساعة.

(١٧)
صورة آدم البشرية وطوله ستون ذراعاً

آدمُ عليه السلام هو أبو البشر، وأولُ مخلوقٍ من البشر، فصورتُه التي خلَقَهُ اللهُ عليها هي صورتُنا نحن البشر، بنفسِ الملامحِ والسماتِ والأجزاء، والفرقُ فقط في الحجم، حيثُ كانَ آدمُ عليه السلام أكبَرَ منا حجماً، وأطولَ منّا قامة.

وقد أخبرَنا عن ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

روى البخاريُّ [برقم: ٣٣٢٦] ومسلمٌ [برقم:٢٨٤١] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" خَلَقَ اللهُ آدمَ على صورته، ستّون ذراعاً .. ثم قالَ له: اذهب فسلّم على أُولئك النّفر - وهم نَفَرٌ من الملائكةِ جلوس - فاستمع ما يحيّونَك، فإنّها تحيّتُك وتحيّةُ ذريتك.

فذهب فقال: السلام عليكم.

فقالوا: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله. فزادوه: ورحمةُ الله.

فكلُّ من يدَخلُ الجنةَ على صورةِ آدم، في طولِه، ستّون ذراعاً، فلم تَزل الخلقُ بعدَه تنقصُ حتى الآن!...."

معنى الحديث "خلقَ الله آدم على صورته" :

إن هذا الحديث الصحيح عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُقَدِّمُ لنا "معلومات" في غايةِ الأهمية، فيما يتعلّقُ بأبينا آدم عليه السلام، وبقصّةِ بدءِ الخلق.

وقد وقفنا قبل قليل أمام مشهد تحيته للملائكة، وردهم عليه التحية بأحسن منها، حيث زادوه: "ورحمة الله".

وقد التبسَ على بعضِ المسلمين فَهمُ قولهِ في الحديث:" خَلَقَ اللهُ آدمَ على صورته"، وفي تحديدِ ما عادَتْ عليه الهاء.

فأعادَ بعضُهم الهاءَ في "على صورته" على الله، وجسَّمَ اللهَ في صورةٍ مجسَّمة، وجعل آدمَ انعكاساً لها! وقال: معنى قوله: "خلق الله آدم على صورته": خلق الله آدم على صورتهِ نفسِه، أيْ أنّ آدمَ انعكاسٌ لصورةِ الله، ونموذجٌ بشريٌّ لصورةِ الله ! سبحان الله وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

إنّ هذا فهمٌ باطلٌ مردود، ويتعارضُ مع العقيدةِ الإِسلامية، لأنّ فيه تجسيماً لذاتِ الله في صورةٍ ماديّةٍ مجسَّمة، محدودةٍ محصورة، مع أنّ الله ليس كمثلهِ شيء، وهو السميعُ البصير! فلا يُشبهُهُ أحَدٌ من المخلوقين، في ذاتٍ أو صفاتٍ أو أفعال!.

إنّ الهاءَ في "على صورته" لا يمكن أنْ تعودَ إلاّ على آدم عليه السلام، وهو أقربُ مذكور قبلَها :" خلقَ الله آدم على صورته".

والمرادُ بصورتِه صورتُه التي أهبطَهُ اللهُ عليها إلى الأَرض، وعاشها على الأرض، ورآه عليها أولاده، وهي صورته البشرية، وجسمه الآدمي، بأعضائه، وأجهزته وهي أعضاء وأجهزة جسم كل منا. أي أن آدم عليه السلام خلق في الجنة، وعاش فيها مدة من الزمان، وكان في الجنةِ على نفسِ الصورةِ والجسمِ والأعضاءِ والأجهزةِ التي رآهُ عليها أولادُه.

وهذه المعلومةُ في الحديثِ مهمةٌ جداً، لإبطالِ كلِّ زعمٍ أو افتراضٍ يتعارضُ مع ما قررتهُ تلك المعلومة، ولرفضِ أيّ "اجتهاد" يصدرُ عن أيِّ شخصٍ- مهما كانَ مركزُهُ أو علمهُ- يختلفُ مع تلك المعلومة.

إن الصورة التي رآهُ عليها أولادُهُ على الأرض، والتي خلقَ اللهُ عليها ذريتهُ جميعاً من البشر، هي نفسُ الصورةِ التي خَلَقَهُ اللهُ عليها في الجنة، وهي الصورةُ البشريةُ المعروفة.. ومما يؤكّدُ معنى هذا الحديث، تأكيدُ القرآن على بشرية آدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ ﴾ [الحجر:٢٨]

والبَشَرُ هو كلُّ إنسانٍ من الناس، وآدمُ عليه السلام هو أبو البشرِ وأوَّلُهم، والبَشَرُ مشتقٌّ من البَشَرة، وهي ظاهرُ جسم الإنسان!.

طول آدم ستون ذراعاً:

ويخبرُنا ذلك الحديث الصحيحُ أنّ آدمَ كانَ أطولَ منّا قامةً، فالله جعلَ طولَه ستّين ذراعاً، وهو ما يَزِيدُ على أربعينَ متراً! وهذا ارتفاعٌ شاهق.. إنّ قاماتِ الناسِ أقلُّ من مترين، وشَذّ من يزيدُ طولُهُ على مترين بسنتيمترات. أيْ أنّ آدمَ كانَ أطولَ منّا بحوالي ثلاثين ضعفاً! وهذا أمرٌ عَجيب.

لكنه ليسَ مستحيلاً، لأنّ الله هو الذي خَلَقَهُ على ذلك الطول، وهو الحكيمُ فيما يفعل، الفعّالُ لما يُريدُ سبحانه، فطالما أرادَ خلقَ إنسانٍ بهذا الطول فسيفعلُ ذلك.

والأساسُ عندنا هو صحةُ الحديث، وبما أنّ الحديثَ في الصحيحين فهو صحيح، ويجبُ علينا الأخذُ به، ولا يجوزُ إنكارُه !!.

واللطيفُ أنَّ اللهَ يُعيدُ للمؤمنين طولَ أبيهم آدمَ عليه السلام في الجنة، فكلُّ واحدٍ منهم يدخُل الجنةِ وطولُه ستون ذراعاً، فليس في الجنةِ طويلٌ أو قصير، لأنهم جميعاً على "مقاسٍ" واحد، لئلا يقعَ بينهم تحاسُدٌ أو تباغُض أو غيرة، والجنةُ منزَّهة عن هذه النقائص!.

الإسلام عكس نظرية دارون:

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديثِ السابقِ أنهُ ما زالَ الخلق يتناقصُ عن آدم بعدَ ذلك، وهذه معلومةٌ في غايةِ الأهميةِ أيضاً.

طولُ آدمَ ستون ذراعاً، وما زالَ أبناؤُه يقصرون، وطولُهم يتناقص، حتى صارَ متوسطُ طولِ البشر في زماننا حوالي مائةٍ وسبعين سنتمتراً!.

إنَّ هذا الحديثَ الصحيحَ العجيبَ يُقررُ عكس نظرية "دارون" الخبيث، في "النشوء والارتقاء".

تلك النظريةُ الافتراضيةُ المغلوطة، التي تلقَّفَها اليهودُ المجرمون من دارون، ونشروها بين الناس، ليحاربوا بها حقائق الدين ومقرراته.

وتقوم تلك النظرية المغلوطة عى أن المخلوق البشري نشأ صغيراً ثم نما وتطورَ وارتقى، وتدرَّجَ في ارتقائه، حتى صارَ حيواناً، وانتهى به التطورُ الذاتيُّ ليكونَ إنساناً بشراً، بهذه الملامحِ والقسماتِ والأعضاء!.

ولسنا هنا في مقامِ مناقشةِ هذا الزعم "الداروني" المتهافت، الذي تَخَلّى عنه الغربيون أنفسهم، إنما نكتفي بالإشارةِ إلى أنَّ هذا الحديث يقررُ عكسَ نظريةِ دارون.

فالحديثُ يقرر أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَ آدم، وأنه خَلَقَهُ بشراً سويّاً من أول لحظة من حياته، التي عاشها في الجنة، وأنه كان طويلاً سامقاً، طوله ستون ذراعاً، وأنَّ أولادَه وذريته ما زالوا يتَناقصون طولاً وعمراً.

(١٨)
نتيجة امتحان الملائكة وآدم

لما سألَ الملائكةُ اللهَ عن حكمة استخلاف من سيفسدُ في الأرضِ ويَسفكُ الدماء، لم يُجِبهم مباشرة، ولم يذكُر الحكمة فوراً، واكتفى بالإحالةِ على علمه، حيثُ قال لهم: " إني أعلم ما لا تعلمون".

وبعد ذلك قَدَّمَ لهم الحكمةَ من استخلافه لآدم، ولم يكنْ ذلك خَبَراً أو كلاماً، وإنما كان حادثةً فعليّة، وتجربةً عملية، حيثُ أجرى لهم "امتحاناً"، وقَدَّمَ لهم فيه سؤالا، فَعَجَزوا عن الجواب، بينما لم يَعْجزْ آدم، وبذلك عرفَ الملائكةُ الحكمةَ التي سألوا عنها. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة:٣٣]

علم الله آدم الأسماء كلها:

تخبرنا هذه الآيات الكريمة أنّ الله عَلَّمَ آدم الأسماءَ كُلّها، وهيَ أسماءٌ لأشياءَ ومُسمّيات، وكلمةُ "كلّها" توكيد، دالّةٌ على أنّ الله علَّمَهُ كلّ اسمٍ لكلّ مُسَمى، من مُسَمّيات كانت في الجنة.

وأل التعريف في "الأسماء" للعهد الذّهني، أيْ أنها أسماءٌ معهودةٌ في الذّهن، معروفةٌ من خلالِ قصةِ آدم، أسماءٌ لمسميات كانت موجودة عندما جَرَتْ أحداثُ القصة، وبما أنّ القصةَ وقعتْ أحداثُ مشاهدها الأُولى في الجنة فلا بُدَّ أن يكون المراد بالأسماءِ أسماءٌ لمسمَّيات وأشياءَ موجودة في الجنة.

عَلّمَ اللهُ آدمَ أسماءَ تلك المسمَّيات، التي لها صلةٌ بحياته في الجنة، وتتعلقُ به وبحاجاته في الجنة، ولا نَدري كيفَ عَلّمه اللهُ إياها! لأنّ الآيةَ لم تذكر ذلك، المهمُّ أنّ الله عَلّمَه إيّاها، فتعلّمها وحفظها وأتقنها.

ولم يُعَلّم اللهُ الملائكة تلكَ الأسماء، ولعلّهم لم يكونوا يَحتاجونَ لها، ولا يُعَلّمُهم اللهُ إلاّ ما يحتاجونَ إليه.

وأرادَ اللهُ أن يُبينَ للملائكةِ حكمةَ استخلافِ آدم، وأنّهُ زوّدَه بالوسائلِ التي تُعينُهُ على تحقيق الخلافة، ولم يُزَوِّدهم بها لأنهم لا يَحتاجون إليها.

عَرَض المَسمّياتِ على الملائكة، وطلبَ منهم أن يُنبؤه بأسمائِها: " ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين".

ونلاحظُ أنه اختارَ للمَسمَّياتِ المعروضةِ ضميرَ العاقل:"ثم عرضهم" ولم يقُل: ثم عَرَضَها! ولعلَّ في تلك المسميات مخلوقين عُقلاء، ولعلّهم مخلوقون يأتونَ فيما بعد، ولعلّه غَلّبَ العُقلاءَ على غيرهم، ولعلّه اختار ضمير "هم" لأنّ المسؤولين الممتحنَين عُقَلاء، وهم الملائكة وآدم، مع أنّ المسَمَّيات غيرُ عاقلة، وإنما هي أشياء أو جمادات ! لعلّ هذا أوذاك، فنحنُ نعترفُ بعجزِنا وقصورِ علمِنا، وإنّ الجملة القرآنية مبهمة لم تُفصّلْ لنا المسمياتِ المعروضة، فنكتفي بهذه الاحتمالات، ونَكلِ العلمَ بها إلى اللهِ سبحانه.

اعتراف الملائكة بقصور علمهم:

طلب الله من الملائكة أن يخبروهُ بأسماءِ المسَمَّيات المعروضة! مع أنّهُ يَعلمُ أنهم سيَعجِزون، لأنهُ لم يُعَلّمهم إِيّاها من قبل، ولكنّه أرادَ أنْ يُقدِّمَ لهم الحكمةَ من الاستخلافِ بطريقةٍ عملية.

ولهذا أجابَ الملائكةُ قائلين:" سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم".

بدأوا جوابَهم بتسبيح الله، وتنزيهِه عن كلّ نَقْص،ووَصفه بالكمالِ والجلال، ثم اعترفوا بقُصورِ علمِهم، وأنهم لا يعلمونَ الجواب، لأنهم لا يَعلمونَ إلا ما عَلّمهم اللهُ إيّاه.

وفي هذا الاعترافِ الملائكيِّ دليلٌ على أنّ عِلمَ الملائكةِ هبةٌ من اللهِ سبحانه، وأنه ليسَ عِلماً ذاتياً مكْتَسباً.. ما عَلّمَهم اللهُ إيّاه يَعلمونه، وما لم يُعَلّمهم اللهُ لا يعلمونَه، فهناك أشياءُ كثيرةٌ يجهلونَها..

وقُصورِ علم الملائكة، وجهْلُهم بأشياء كثيرةٍ لم يُعَلّمهم اللهُ إيّاها، دليلٌ على نقصهم وضعفهم،وهذه صفةٌ ملازمةٌ لكلِّ مخلوق، والعلمُ الكاملُ الشاملُ إنما هو لله وحْدَهُ سبحانه.

وبعدما اعترفوا بقصورِ علمِهم، أثنَوا على الله بما يستحقُّه، وجمعوا بينَ وصفِهِ بالعلم ووصفِهِ بالحكمة:" إنك أنت العليم الحكيم."

عندَ ذلك أمَرَ اللهُ آدمَ أنْ ينبئ الملائكة بأسماءِ "المسَمَّيات" التي لم يَعرفوها، فتَقَدَّمَ، وأعَلَمَهم بها...

وفوجئ الملائكةُ بذلك، فهذا المخلوقُ الجديدُ الذي خَلَقَهُ اللهُ قبلَ فترةٍ وجيزة، وجَعَلَه خليفةً في الأَرض أعلمُ منهم، فها هو يَعلَم ما جَهِلوه، ويتكلّمُ بما لم يعرفوه، عند ذلك عرفوا فضلَ هذا

المخلوقِ عليهم، وحكمة جعلِه هو الخليفة في الأرض، وعندما عَرَفوا الحكمة عمليّاً قالَ اللهُ لهـــم: " ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون.."

(١٩)
أهمية العلم والنطق للخلافة في الأرض

وهكذا نجحَ آدم، حيثُ عرفَ ما جَهِلَتْهُ الملائكة، وأجابَ عما عجزتْ عنه الملائكة، وبذلك عَرَفت الملائكةُ فضلَهُ عليهم، وحكمةَ استخلافه في الأرض.

ودلَّتْ حادثةُ امتحانِ الملائكةِ وآدم على أهميةِ العلمِ للخليفةِ في الأرض، وعلى فضل العلم، وعُلُوِّ منزلةِ صاحبِه عندَ الله.

واللافتُ للنظرِ تكرارُ كلمةِ العلمِ في حادثةِ امتحانِ الملائكةِ وآدم:" وَعَلَّمَ آدمَ".. "لا عِلمَ لنا" .. "إلاّ ما عَلَّمتَنا" ...."إنك أنتَ العليمُ الحكيمُ".. "إني أعلمُ غيبَ السمواتِ والأرض.." "وأعلمُ ما تبدون..". فقد ذكرت اشتقاقاتُ العلم "سِتَّ" مراتٍ في آياتِ الامتحان، للدلالة على أهميةِ العلمِ وقيمته...

وإنَّ اللهَ هو الذي عَلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها، وجعلَ سبحانه عنده القدرةَ على العلم والتعلُّم، والحفظِ والاستيعاب، كما جعلَ عنده القدرة على مراجعةِ المعلوماتِ وتذكُّرها واستحضارِها، وجعلَ عنده القدرةَ على النطقِ والكلام، والتعبير والبيان، وترجمةِ لسانه عما في قلبه، والإفصاحِ المفهمِ عن حاجته، فكما أنَّ العلمَ مهمٌّ وضروري، كذلك النطقُ والتعبيرُ والرمزُ بالأسماءِ للمسمّياتِ مهمٌّ وضروريٌّ أيضاً.

وقد امتنَّ اللهُ علينا بكلا الأمرين، فقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن:١- ٤]

فالله الرحمنُ خَلَقَ الإنسان، وجعله خليفةً في الأرض، وعلَّمَهُ القرآن، باعتباره يُقَدِّمُ له الحقائق والمعاني والمضامين والقيم، وعَلَّمَه البيانَ والنطق، والتعبير عن حاجتِه، وَعْرضَ آرائه وأفكاره.

وإنّ النطقَ والبيان، والرمزَ بالأسماء للمسَمّيات نعمةٌ عظيمةٌ من الله، امتَنَّ بها على هذا الإنسانِ الخليفةِ في الأرض، ولن يُحققَ الخَلافةَ إلا بها، ولن تستقيمَ حياتُهُ إلاّ من خلالِها!!.

فهذه الحيواناتُ والدّوابُّ غيرُ ناطقة، ولها لغةٌ خاصة، يتفاهمُ بها أفرادُ كلِّ فصيلٍ فيما بينهم، لكنها لغةٌ بدائية، لا تَخرجُ عن كونِها صفيراً أو نهيقاً أو ترغاً، ولكنّها كلّها أصواتٌ ليسَ إلاّ!.

أمّا الإنسانُ الخليفةُ فلهُ لغتُه الواضحةُ المفهومة، عربيةً كانتْ أو أعجميّة، وهو "يتَفَنَّنُ" في هذه اللغة، نُطقاً وكتابة، ومحادثةً وخُطبة، وإنشاداً وغناء، يُعَبِّرُ بذلك عَمّا في نفسه، من مشاعرَ وأحاسيس، وانفعالاتٍ وأشواق، وهمومٍ وآلام، وأفكارٍ وتصورات، وحاجاتٍ وضرورات، وإبداعٍ واتقان.

ولو لم يُعلّم اللهُ هذا الإنسان البيان، لَحُرِمَ من هذه الإنجازات والمكاسب، التي لا تتحققُ إلا بالعلم والتعلُّم والنُّطق، ولَعَجَزَ عن تحقيقِ الخلافة في الأرض.

وقد كانت البدايةُ عندَ آدمَ أبي البشَر، عندما عَلَّمَهُ اللهُ الأسماءَ كلَّها، وجعلَ فيه خاصيةَ النطق، والرمزَ بالأسماءِ للمسَمَّيات، والتعبيرَ عما في نفسه، والإخبارَ عما تعلَّمه. والحمد لله رب العالمين.

(٢٠)

كل الملائكة سجدوا لآدم

بعدما نجحَ آدم، وعرفَ ما جهلهُ الملائكة، عَرَفوا فضله عليهم، وأنه هو المؤَهَّلُ للخلافة.

ثم إنّ الله أراد أنْ يكرِمَ هذا المخلوقَ الذي خَلَقَه، فأمَرَ الملائكة أنْ يَسْجُدوا له، فنفذَ الملائكة الأمر، وأطاعوا الله سبحانه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص:٧١-٧٣]

ودَلّتْ جملةُ:" فقعوا له ساجدين" على كيفية السجود المطلوب منهم، وتوحي بأنّه سجودٌ حقيقي، كسجودنا نحن لله في الصلاة على سبعة أعظُم..

إنّ كلمة "السجود" عند الإطلاقِ لا تنصرفُ إلاّ للسجود المعهود المعروف.. ولا يُصرفُ اللفظُ عن هذا الظاهرِ لغيره إلاّ لقرينة.. ولا توجَدُ في الآياتِ قرينةٌ تدلُّ على ذلك، فالأصلُ حمْلُهُ على هذا الظاهر.

ثم إنّ قوله "فقعوا" يدلُّ على أنه سجودٌ حقيقيٌّ على الأرض.

الفاءُ في "فقعوا" واقعةٌ في جوابِ الشَّرط، لأنّ "إذا" ظرفٌ للمستقبل مع شرط، وجملةُ "سويته ونفخت فيه من روحي" .فعلُ الشرط، وجملةُ "فقعوا له ساجدين" جوابُ الشرط، والمعنى: قعوا له ساجدين عند تسويتهِ والنفخِ فيه من روحي!

و" قَعُوا " فعلُ أمر، الماضي منه: "وقَعَ" يقال: وَقَعَ فلانٌ ساجداً أي: سَجَدَ على الأرض.

لقد سجدَ الملائكة لآدم، بأنْ خَرّوا على الأرض، وكان سُجودُهم له يُشابِهُ سجودَنا نحن لله في الصلاة.

وكان سجودُهم لآدمَ تكريماً وتحيةً له، واعترافاً بمنزلتهِ وفضْلِهِ، ولم يكن سجودَ عبادة له، لأنَّ سُجودَ العبادةِ لا يكونُ إلاّ لله.

سجودهم لآدم عبادة لله:

ثم إن الآمرَ لهم بالسجود لآدم هو اللهُ سبحانه، وهم لما سَجَدوا له إنما نَفّذوا أمْرَ الله، فكانوا بسجودِهم لآدَمَ عابِدينَ لله سبحانه.

وإنَّ اللهَ لا يأْذَنُ بعبادةِ غيرِه، ولا بالإشراكِ به، ولا يـأْمُرُ باتخـاذِ غـيرِهِ مـن المخلـوقين إلهاً أوربّاً، وعندما يأْمُرُ عبادَه من الملائكةِ أو الجنِّ أو الإنـسِ بمظهـرٍ مـن مظـاهرِ العبـادة، إنمـا يأْمُرُهم بعبادته هو، وما ذلك المظهرُ العِباديُّ إلاّ رَمْزاً لعبادة الله.

فاللهُ أمَرَنا باستقبال القبلة في صَـلاتنا، والـذي يُصَـلي أمـامَ الكعبـةِ أمـره اللهُ أنْ يستقبلَ الكعبةَ نَفْسَها، فهل هذا المصَلّي يصلّي للكعبة؟ كلاّ. إنما هـو يُصـلّي لله، والكعبـةُ مجـردُ قبلة.. وقُلْ مثلَ هذا في الطـوافِ بالكعبـةِ للحـاجِّ أو المعتمـر، أو في تقبيـل الحجـر الأسـود، فالمؤمنُ عابدٌ للهِ وحده، عند أدائه مناسكَ الحج.

ولهذا كان سجودُ الملائكة لآدمَ عبادةً منـهم لله وحْـدَه، وتحيـةً وتكريمـاً منـهم لآدم، واعترافاً منهم بفضلِه ومنـزلتِه عندَ الله.

وظاهِرُ التعبيرِ القرآنيِّ أنَّ الملائكةَ كلَّهـم كـانوا مـأمورين بالسـجودِ لآدَم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤]

فأل التعريفِ في: "الملائكة" تدلُّ على العموم، وهذا يَشملُ جميعَ الملائكة.

ودليلُ هذا العموم أنهُ لما أخبرَ عن تنفيذِهم الأمْـرَ، أكّـدَ ذلـك بلفظَـيْن مـن ألفـاظ التوكيد: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون".

"كلُّهم" توكيدٌ معنويّ مرفوع، لأنه توكيدٌ للفاعـل "الملائكـة"، و"أجْمَعـون" توكيـد آخر معنويٌّ مرفوع.

ونفهمُ من لَفْظَي التوكيدِ حرصَ القرآنِ على إثباتِ أن كـلَّ الملائكـة وجمـيعهم نَفّـذوا أمْرَ اللهِ وسَجَدوا لآدَم، ولم يتخلّفْ عن ذلك أحَدٌ منهم! لأنه من المعلـومِ مـن مقـرراتِ القـرآنِ أنَّ الملائكةَ مطيعونَ لله، مُنَفِّذونَ لأمْرِه، لا يَعصونَ اللّهَ ما أمرهم، ويَفْعلون ما يُؤْمَرون.

فضل آدم على الملائكة:

يؤخذ من أمْرِ اللهِ بالسجودِ لآدَمَ فضلَ آدمَ عليهم، فهـو سـجودُ المفضـول للفاضـل، اعترافاً بفضله عليه.

والراجحُ أنَّ الأنبياءَ والأولياءَ أفضلُ عندَ الله مـن الملائكـة، لأنَّ إيمـانَ الملائكـة إيمـانٌ فطريّ، وعبادةَ الملائكةِ لله عبادةٌ فطريّة، ليس لهم في ذلـك إرادةٌ ولا اختيـار، و يتوجّهـونَ إليـه بعد سعيٍ وكسبٍ ومجاهدةٍ وتربية، واللهُ فَطَـرَهم علـى ذلـك، وهـم يُؤَدونُـه بـدون فتـورٍ أو كسلٍ أو مَلَل!.

أمّا البشرُ فقــد كَلّفَهــم اللهُ بــذلك تكليفــاً، وأدّى الأنبيــاءُ والصــالحون أمــر الله، باختيارِهم وكسبِهم واجتــهادِهم وســعيِهم، وتغلّبــوا علــى المعوقــات والمثَبّطــات والمغريــات، وجاهَدوا أنفسَهم، وترَكوا ما حَرَّمَ الله، وارتقوا إلى المنــازلِ العاليــةِ، بفضــلِ الله علــيهم، الــذي وفَقّهم وأعَانهم.

وكما أنّ الإنسانَ الكافرَ أحطُّ عندَ اللهِ من الحيوانــات، لعــدم قيامِــه بواجبِــه، كــذلك الإنسانُ الصالحُ الذي يَستَعلي على ضعْفِه، ويجاهدُ نفْسَه، أفضلُ عنــد الله مــن الملائكــة، الــذين يؤدّون عباداتِهم بدونِ جهدٍ أو مجاهدة.!

(٢١)
إبليس من الجن وليس من الملائكة

لما أمَرَ اللهُ الملائكةَ أنْ يَسجدوا لآدَم، كانَ إبليسُ مثلهم مأموراً بالسُّجود، لكنَّه لما نَفّذَ الملائكةُ أمْرَ اللهِ وسَجدوا عصى وتمرَّد، ولم يَسْجُدْ لآدم!.

ويُفهمُ من الآياتِ التي تحدَّثتْ عن قصةِ آدمَ أنّ إبليسَ كان معَ الملائكة، لكنه ليس من الملائكة.

أخْبَرَنا اللهُ أنّ اسْمَه إبليس، وأنه من الجنّ، ولا يَجوز أنْ نبحث له عن اسم آخر، ولذلك نرفضُ ما يثيرُه مُرَوِّجو الإسرائيليات والأساطيرِ من تَفصيلاتٍ حولَ إبليسَ وعمله بين الملائكة. ولا معنى لأنْ يقولَ بعضُهم: كان اسْمُه قبلَ عصيانه "عزازيل" من العزَّة، وكانَ "طاووسَ" الملائكة في العبادة، أيْ أنه كانَ أعرفَهم بالله، وأكثرَهم عبادةً له. فلما عصى وكفرَ غَيَّرَ اللهُ اسْمَه من عَزازيل إلى إبليس. وسَمّاه إبليسَ من الإبلاسِ، وهو الحيرةُ والشّكُ والإحباط.

هذا كلُّه كلامٌ مرفوضٌ عندنا لأنه ليسَ عليه دليلٌ من الكتابِ أو السنّة.

اسْمُه "إبليس" لأنه وردَ في آياتٍ عديدةٍ من القرآن، والراجحُ أنّ هذا الاسْمَ أعجميٌّ وليس عربيّاً، وليس مشتقّاً من الإبلاسِ الذي هو الحَيْرَة، ولا معنى له في العربية، لأنّ اللهَ خلقَ إبليسَ قبلَ خلقِ آدَم، وقبلَ أنْ يتكلمَ أولُ عربي باللغةِ العربيةِ بآلافٍ أو ملايين السنين!.

كان إبليسُ مع الملائكة، مع أنه ليسَ من جنْسهم، ولا واحداً منهم، ولا نعرفُ سببَ وجودِه معهم، لأنَّ اللهَ لم يخبرنا بذلك.

كانَ إبليسُ مأموراً مع الملائكةِ بالسجودِ لآدم، مع أنه لم يكنْ من جنسهم، ويبدو أنّ وجودَه معهم جعلَه مشمولاً بالأمرِ معهم، وقد أخبرنا اللهُ في صريح القرآن أنه كان مأموراً بالسجود. قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢]

وأخبرنا اللهُ في صريح القرآن أنّ إبليسَ من الجنّ. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]

ولا يَجوزُ الاختلافُ في جنسِ إبليس، هل كانَ من الملائكـةِ أو مـن الجـن بعـد هـذه الآيةِ الصريحة، وإنّ مزاعمَ بعضِ الاخباريّين مردودةٌ مرفوضةٌ باطلـة لأنهـا تتعـارضُ مـع الحقيقـةِ القرآنيةِ الجازمة: "إلا إبليس كان من الجن".

وغيرُ معقولٍ أنْ يكون من الملائكة، لأنه عصى وتمرَّدَ وكفـر، والملائكـةُ يُنَفِّـذون أمْـرَ اللهِ ولا يعصونَه.

كما قـال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦]

وغيرُ معقولٍ أن يكونَ من الملائكة، لأنه صَرَّحَ بأنه مخلوقٌ من نار، قـال تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦]

وبما أنه من الجّـن وليـس من الملائكة فإنّ الاستثنـاءَ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤] استثناءٌ منفصل، كما يقولُ علماءُ النحو، وهو الذي يكونُ فيه المستثنى من غيرِ جنس المستثنى منه الذي قبله، كأنْ تَقولَ: أكَلْتُ الطعامَ إلاّ الماء!! فالماءُ مشروبٌ وليسَ من جنسِ الطعامِ المأكول. وإبليسُ من الجـنِّ وليس من جنسِ الملائكة.!

(٢٢)
إبليس المستكبر المستعلي

أخبرَ اللهُ عن عدمِ سجود إبليس، ووَصفه بالكفرِ والإباءِ والاستكبار. قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤]

الإبــاءُ: الامتنــاع، فــإبليسُ أبـــى أنْ يَســجدَ لآدم، أي امتنــعَ عــن الســجود. والاستكبارُ: هو سَببُ الإباءِ والامتناع، وتعليلٌ له، والباعــثُ الــذي حمــلَ صــاحبَه علــى عــدم التنفيذ، فكأنَّ سائلاً يسأل: لماذا أبــى إبليسُ أنْ يسجدَ ويُنفــذَ أمْــر الله؟ فيأتيــه الجَــواب لأنَّــه استكبر، ورأى نفْسَه فوقَ الأمْر، واكبرَ من الانقياد لأَمْرِ الله!.

والكفرُ: هو نتيجةُ التمردِ والعصيان، فهو قد كَفَرَ بالله لأنه عصى أمْرَه متعَمّداً.

وبذلك يكون ترتيب خطوات تمرد إبليس هكذا: اســتكبار إبلــيس هــو ســر هلاكــه، وهو الذي دفعه إلى الإباء والامتناع، وهــذا الإبــاء قــاده إلى الكفــر، وبــذلك خســر الــدنيا والآخرة: "أبى واستكبر وكان من الكافرين"

وعَبَّرَ عن كفره بلفظ الماضي "وكان من الكافرين"، للإشــارة إلى مــا عَلمَــهُ اللهُ عنــه، منذُ الأزل، قبلَ أن يخلُقه . أيْ أنَّ اللهَ كــانَ يعلــمُ مــا ســيفعلُه إبلــيسُ قبــل أنْ يخلُقَــه، وأنــه سيرفُضُ أمره، ويكفرُ به، ويكون قائدَ الكــافرين.. ولمــا تمــرَّدَ إبلــيسُ فعــلاً، وكفــرَ في عــالم الواقع، تحققَ بذلك ما علمَهُ اللهُ عنهُ منذُ الأزلْ. فمعــنى قولــه: "وكــان مــن الكــافرين" كــان إبليس في علم الله من الكافرين.

سؤال الله لإبليس عن سبب امتناعه عن السجود:

ومع أن اللهَ سبحانه يعلمُ السبب الذي دفعَ إبليسَ إلى عدمِ السجود إلاّ أنهُ ســأله، وذلــكَ ليتكلم إبليس، ويُظهرَ ما في نفسه، ويَعترفَ بلسانِه، ولتكونَ عقوبتُه بعدَ تسجيلِ اعترافه. قــال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر:٣٢-٣٣]

أيْ مالَكَ يا إبليس؟ وما الذي جــرى لــك؟ ولمــاذا لم تكــنْ مــع الملائكــةِ الكــثيرين الساجدينَ لآدم؟ فقد أمرتُك بالسجود معهم فلماذا لم تمتثِل مثلَهم؟

أجاب إبليسُ بأنه ما كان ليسجدَ لآخَرَ هو أقَلُّ وأدنى منه، لأنه مخلوقٌ من عنصرٍ أحقر من عنصره، وهو الصلصالُ من الحمأ المسنون.

وجاءَ السؤالُ والجوابُ بصيغةٍ أُخرى في سورة ص قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ (٧٦) ﴾ [ص:٧٥-٧٦]

أي ما الذي مَنَعكَ من السجود لآدم؟ فأنا الذي خلقْتُك، وأنا الذي خلقْتُهُ بيدي، وكرمْته بأنْ نفخْت فيه من روحي، وأمرتُكَ أن تسجدَ له كما أمرتُ الملائكة، ولكنك لم تسجدْ له، فما الذي منَعكَ من السجود؟ هل هو استكبارُك؟ أم استعلاؤُك؟

ويدلُّ قوله "لما خلقت بيدي"على أنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ بيديه، وعلى تكريم الله لهذا المخلوق العجيب. وعندما يُريدُ إنسانٌ تكريمَ آخَرَ بطعام مَثَلاً، فإنه يُعِدُّه له بنفسِه، ويقول له: تَفَضلْ فهذا طعامٌ أعددتُه لك بنفسي، لكَرامتك عندي.

فاللهُ خَلَق آدمَ بيدَيْه سبحانه، ونفخَ فيه من روحه، وهذا تكريمٌ له. وفي قوله" استكبرتَ" همزةُ استفهام، داخلةٌ على همزةِ الوَصل. أصلُها: أَإِستكبرت. بهمزَتين، فأُدغمتْ همزةُ الوصلِ بهمزةِ الاستفهام، وصارتْ: أَستكبرت.

ومعنى قوله: " أم كنت من العالمين"؟ من المصابين بالاستعلاء، وهم الذين يَسْتعلونَ على غيرهم، ويرونَ أنفسهم أعلى منهم وأفضل.

والعالون مذمومون عندَ الله كالمستكبرين.

وليسَ العُلُوُّ مرادفاً للاستكبار، فليس العُلُوُّ والاستكبار بمعنى واحدٍ في هذه الآية: "استكبرت أم كنت من العالين"؟ لأنه لا تَرادُفَ في القرآن.

الاستكبار والاستعلاء مرضان خطيران:

ويبدو أن العلو نتيجة للاستكبار، وثمرةٌ له. فهما مرحَلَتان:

الأولى: مرحلة الاستكبار: وهي أنْ يرى الشخصُ نفسه كبيراً، أكبرَ من حجمهِ بكثير، ويعتدَّ بنَسبه أو جماله أو ماله أو قوَّته أو مركزِه.

الثانية: مرحلةُ الاستعلاء: وهي التي تعدّاه إلى غيره، وتحكُمُ تعامُلَه مع غيرِه، حيثُ يرى نفسَه الكبيرةَ أعلى من الآخرين، ويتعاملُ معهم باحتقارٍ وازدراءٍ وإذلال!

فالاستكبارُ يحكمُ نظرةَ الإنسانِ إلى نفسه، والاستعلاءُ يحكمُ نظرتَه إلى غيره. والاستكبارُ يقودُ إلى الاستعلاء ويوصِلُ إليه، ولا يَستعلي إلاّ المستكبر.

وهما مَرضان نفسيّان يُصيبان المعَقّدين من المخلوقين، الذين هم صِغارٌ في الحقيقة، صغارٌ في المبادئ والأخلاقِ والقيم والفضائل، مُعْدَمون من الإيمانِ والعملِ الصالح والتقوى، لا قيمةَ لهم في هذا العالم الكبيرِ الجميل، فيرونَ أنفسهم كباراً، ويُقْنعون أنفسَهم بذلك، ثم يَتَصرفون على هذا الأساس، ويملأُونَ الأرضَ وعُلوّاً وفَساداً، وَيستَعْلون على الآخرين!

وأسوأُ مَنْ يُمثلُ هؤلاء المستكبرينَ المستعلينَ إبليسُ، ثم فرعونُ، الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤]

ثم بَنو إسرائيل الكافرون – اليهود – الذين قالَ اللهُ لهم: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الاسراء:٤]

وأوردتْ سورةُ الأعرافِ صيغةً ثالثةً للسؤالِ الموجَّه لإبليس. قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢]

وفي هذه الآية زيادةُ حرْفِ "لا"، فقد كان السؤالُ في سورة ص "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" والسؤال في سورة الأعراف (ما منعك ألا تسجدَ إذ أمرتك) .

ولم يُحسنْ بعضُهم فهم دلالةِ حرفِ :لا" في آية الأعراف، ومن ثَمَّ قالوا: هو حرفٌ زائد! وفَسّروا المانع في سورة الأعراف بالمانع في سورة (ص).

وهذا كلامٌ مردود، لأنه لا زيادةَ في حروفِ أو كلماتِ القرآن. هناك فرقٌ بين قوله: "ما منعك أن تسجد لما خلقت"، وبين قوله "ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك".

إنَّ الأولَ معناه: لماذا لم تَسجد؟ وما الذي منعكَ من السجود لهذا المخلوق؟ أما الثاني فإنّ معناه: ما الذي دَفَعكَ إلى عدم السجود، وألجأكَ إلى عدمِ السجود، وبذلك كان مانعاً لك من السجود؟

الفرقُ بين الجملتَيْن دقيق، بدقّة الخيطِ الرفيع، ويَحتاجُ إلى إعمال فكْر! هناك شيءٌ وسببٌ ودافعٌ دفَع إبليسَ وألجأه إلى عدم السجود، استجابَ إبليسُ له وامتنعَ من السجود! فكانَ السؤالُ عن هذا الدافع إلى عدمِ السجود في سورةِ الأعراف، وكان السؤالُ عن استجابتِه هو لهذا الدافعِ وامتناعهِ من السجودِ في سورةِ (ص). والله أعلم.

(٢٣)
سر هلاك إبليس: أنا خير منه

كان جوابُ إبليسَ على سؤالِ اللهِ له كاشفاً عن استكباره واستعلائِه. قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢]

يقول: أنا خيرٌ من آدم، فكيفَ أسجدُ له؟ فأنا مخلوقٌ من نار، وهو مخلوقٌ من طين.

وفي قوله "خلقتني من نار" دلالةٌ صريحةٌ على أنه من الجن، كما سبقَ أنْ قَرَّرْنا، لأنَّ الجنَّ مخلوقون من نارٍ بنصِّ القرآن.

كيفَ عرفَ إبليسُ أنه مخلوقٌ من نار؟ لعلَّ اللهَ أخبرَه بذلك، فعرفَ أصلَه النّاريّ!.

وقاسَ إبليسُ أصلَ آدمَ على أصْله، وقارنَ بين النارِ والطين، فخرجَ بنتيجةٍ جازمةٍ عندَه، أنَّ النارَ أفضلُ من الطين، ولذلك رآى نفسَه خَيْراً وأفضلَ من آدم!.

إنَّ مقارنةَ إبليسَ بين النارِ والطين غيرُ صحيحة، والنتيجة التي خرجَ بها من تفضيل النار على الطينِ خاطئة! ما دليلُه عى أنَّ النارَ أفضلُ من الطين؟ ومَنْ أدراهُ بذلك.؟

إننا لا نجدُ سَبَباً وَجيهاً في تفضيل النار على الطين. ولعلَّ الذي دعَاه إلى هذا "القياسِ" المغلوطِ هو استكبارُه وعلُوُّه.

إنه مستكبر مُسْتَعلٍ، يرى نفسَه خيراً من غيرِه، وهذا هو أساسُ المشكلةِ عنده، كما أنَّ هذا هو سِرُّ هلاكِه، لقد اقتنعَ أنه خيرٌ من آدم، ثم راحَ يبحثُ عن أسبابٍ يبررُ بها أفضليتَه وخَيْريته عليه، ووجدَ السبب في اختلافِهما في مادةِ الخلْق، فبما أنه هو أفضلُ من آدم، فلا بدَّ أن يكون أصلُه أفضلَ من أصلِ آدم! إذن: النارُ أفضلُ من الطين!.

بهذا التفكير الإبليسيِّ الشيطانيِّ تعاملَ إبليسُ مع المسألة المعروضةِ عليه، ولذلك تمرَّدَ وعصى وكَفَر، لأنَّ "الأنا" عنده منتفشةٌ مستكْبِرة.

لماذا لم يَنظر الملائكة للمسألةِ بهذا المنظار؟ ولم يُفكّروا هذا التفكير؟ لماذا لم يقولوا: نحنُ خيرٌ من آدم، لأننا مخلوقونَ من نورٍ وهو مخلوق من طين؟ لأن الملائكة نَظَروا للأمرِ باعتباره صادراً من عندِ الله، إنَّ اللهَ هو الذي يأمُرُهم بالسجودِ لآدم، واللهُ حكيمٌ في ما يأمُرُ به، ولا خطأَ في أوامرِه سبحانه، فبما أنه هو الآمرُ فأوامره صواب، ويَجبُ على العبادِ المخلوقين أن يتَلَقوا أوامرَ اللهِ بالقبول والتنفيذ.

وهذه النظرةُ الصائبةُ من الملائكة تتفقُ مع طبيعتِهم الإيمانيةِ المشرقةِ المستسلمة للّه، التي لا تُجيزُ عصيانَه أو مخالفَةَ أمْرِه.

أمّا إبليسُ الأنانيُّ المتكبِّرُ المستعلي، فتناسى عظمةَ الآمِرِ سبحانه وتعالى، وما يستوجبُهُ أمْرُهُ من قَبولٍ وتنفيذ، ونظرَ للمسألةِ بالمنظارِ الأنانيِّ المستكبر، فرأى نفسَه خيراً من آدم، وأفضلَ وأكرمَ، فكيف "يتنازلُ" ويسجدُ لمن هو دونَه؟!.

إبليس قدوة الأنانيين المستكبرين:

"أنا خير منه" جملة كبيرة، مليئةٌ بكلّ معاني الأنانيةِ والتكبُّر، والانتفاشِ والاستعلاء، كانتْ سِرَّ هلاكِ إبليسَ وخسارته، ودفعَتْه إلى التمرد على الله وعصيانه!

وهذه الجملةُ نفْسُها سِرُّ هلاكِ كُلِّ مستكبرٍ مُتعالٍ، تَملكُ عليه أنانيتُه حياتَه، فلا يرى إلاّ نفسَه متكبرةً منتفشة، تُلغي كلَّ ما سواها، وتملأُ الأماكنَ والمواقعَ كلَّها، ويتصرفُ على هذا الأساس، فيُذِلُّ ويحقرُ ويَزدري ويَطحنُ ويَسحقُ ويَتطاولُ على مَنْ سواه، ويَرفضُ أنْ يخضعَ للهِ سبحانه!

هذا المرضُ النفسيُّ الخطيرُ الذي انتقلَ للمتكبرين من إبليس، وجَعلهم جنودا له. قالها أوّل مرةٍ عن آدم "أنا خير منه" فأصابت العدوى كلّ واحدٍ من هؤلاءِ المستكبرين المعَقّدين، ونادى بأنانيةٍ واستعلاء "أنا خير منهم!".

وقد أخبرنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن شعورِ إبليسَ بالخسارةِ والندم، لأنه لم يسجدْ لآدم، لكن متى؟ بعد فواتِ الأوان!

روى مسلم (برقم: ٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم" "إذا قرأ ابنُ آدم السجدةَ فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي. يقول: يا ويلَه، أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود، فَسَجَد، فلهُ الجنة، وأُمرتُ بالسُّجود فعصيتُ، فليَ النّار!".

(٢٤)

إبليس المرجوم الملعون
سيعيش ملايين السنين

اعترفَ إبليسُ بتكبّره واستعلائه، في قوله: "أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين".

وبذلك خَسَر المُقامَ في الجنة، لأنه لا مكانَ في الجنةِ للمتَكبِّرين. ولذلك قال الله له: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣]

أي: اهبط من الجنةِ العاليةِ الرفيعة، فما عادَ لك مكانٌ فيها، لأنكَ استكبرت، واستكبارُك حرمك منها، لأنه لا يكونُ لأحدِ أهلِ الجنة أنْ يتكبر فيها، فأهلُها هم المؤمنون المتواضعون الصالحون. كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]

أصحابُ الجنةِ ليسوا مُستكبرينَ، ولا يُريدونَ عُلُوّاً ولا فساداً، وأيُّ مخلوقٍ مُصابٌ بمرضِ العُلُوِّ والاستكبار فلا مكانَ له في الجنة، وهذا المرضُ هو الذي أصيبَ به إبليس، فجعله يَفقد مكانَه في الجنة.

واستكبارُه قاده إلى الذُلّ والصَّغار: "فاخرج إنك من الصاغرين" والصاغرون هم الأذلاّء المحتَقَرون المُهانون.

إبليس بدل نعمة الله لعنة:

لقد كانَ إبليسُ في الجنة في منزلةٍ عالية، مُكرماً عندَ الله، منَعّماً بخيراتِ الجنة، لكنه لم يُحافظْ على تلك المنزلة، ولم يَحفظْ تلك النعمة، وقابل إحسانَ الله له بالتمرد والمخالفةِ والعصيان، وإنعامَه بالجحود والكفران، ولم يَرْضَ أنْ يستمرّ على طاعةِ الله وعبوديتِه له، ورأى نفسه كبيراً خيِّراً فاضلاً. فحرَمَ نفْسَه بنفْسه من كلّ خير، وبَدل إكرامَ اللهِ له إهانة، وإعزازَه له ذلاً وصغاراً وهذا ما يفعلُه الاستكبارُ والاستعلاءُ بصاحبه.

وأحَلّ اللهُ بإبليسَ لعنته وقالَ له: ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]

والرجيمُ بمعنى اسمِ المفعولِ "مرجوم"، وأساسُ الرجمِ الرميُ بالحجارة، لكنّه استعملَ في كلّ إبعادٍ وطرد. فالمرجومُ هو المطرودُ المنبوذُ المبْعدُ عن الخير.

ونال إبليس هذا اللقب، واستقرّ عليه إلى يومِ القيامة. فأنتَ عندما تستعيذُ بالله منه تقول: أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم.

وإبليسُ ملعون، أحلّ اللهُ به لعنَتَه: "،وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين". واللعنة هي: الطرد والإبعادُ من رحمةِ الله وفضلِه وخيرِه وتوفيقه، وإحلالُ غضبِ الله على الملعون.

لَعَنَ اللهُ إبليسَ بسببِ كفْرِه واستكبارِه، كما لَعَنَهُ الملائكةُ والصالحون، ويلعنهُ المؤمنونَ في كلّ لحظة، وتصَبُّ عليه اللعناتُ صباحَ مساء، فماذا استفادَ من استكبارِه وقولِه: "أنا خير منه"؟ لم يأخذْ إلاّ الطردَ والإخراجَ واللعنة والرّجْم، فصارَ مطروداً مرجوماً ملْعوناً.

بعد ما أخبرهُ اللهُ بهذه العقوبةِ الشديدة يَئِسَ من كلّ خير، وأيقنَ بالخسارةِ والهلاك، وجفّتْ كلُّ معاني الخيرِ في نفسِه، وأصبحَ شَراً خالصاً، وتمحضّ للفساد والتخريب، وجعلَ ذلك رسالةً له في الحياة.

إبليس يريد الخلود:

قام إبليس بمحاولةٍ شيطانية ماكرة، ليكونَ مُخلداً، فلا يَجري عليه قَدرُ الموت. طلبَ من اللهِ أن يُنْظرهُ إلى يومِ البعث. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ [ص:٧٩-٨١]

معنى "أنظرني": أمْهلني وأخّرْ موتي.

والمرادُ بقولهِ "إلى يوم يبعثون" : بَعْثُ الناس، وخروجهم أحياءً من قبورهم، ليُساقوا بعدَ ذلك للحساب.

لماذا طلب إبليسُ من اللهِ هذا الطلب؟

إنه خبيثٌ ماكر مخادع، فهو يُريد أنْ يكونَ مخلّداً في هذا الوجود، ولا يموتَ كما يموتُ باقي المخلوقين! معنى أنْ يبقى حيّاً إلى يوم البعث: أنْ يشهدَ موتَ الناس، وأنْ يشهد نفخة الصّعق، التي يُصعقُ كل الأحياءِ عند حدوثها ويموتون، وأن يشهدَ موتِ الملائكة جميعاً، وأن يبقى حيّاً يتفرجُ على جميع المخلوقين الموتى، وأنْ يبقى حياً يشهد نفخةَ البعث، ويَرى الموتى وهم يُبْعثون أحياءاً.!!

وهذا معناهُ أن لا يموت، بل يكون مخلداً!!

وإنّ اللهَ العليمَ يعلمُ معنى طلبه: "رب انظرني إلى يوم يبعثون" ويعلمُ هَدَفه من ذلك الطلب. ولكنّ هذا يتعارضُ مع سنةِ اللهِ في المخلوقين، من الإنسِ والجنّ والملائكةِ وغيرهم، والتي تقرر أنهم لا بُدّ أن يموتوا، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥]

وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٤]

إبليس أطول المخلوقات عمراً:

إذا كان جميع الجن والإنس والملائكة سيموتون، فإنّ إبليسَ لا بدّ أنْ يموتَ، ثم يبعث للحساب. ولذلك ردّ اللهُ على طلبِه قائلا: " إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم".

أنظرهُ اللهُ وأمهله، وأطالَ عمرَه، وأخرّ موتَه وقبضَ روحِه، ليسَ إلى يومِ يُبْعَثون، لكنْ إلى "يوم الوقت المعلوم"، وهو اليومُ الذي حَدَّدَ اللهُ فيه موتَ إبليس، وهو معلومٌ مُحَدّد مُقَدّر، لا يتقدّمُ ولا يتأخَر.

وهذا سيكونُ قُبيل قيامِ الساعة. أيْ أنّ إبليسَ لا بدّ أنْ يموتَ قُبيلَ قيام الساعة.

وإنّ إبليسَ من أطولِ المخلوقات عُمراً. فقد خَلَقَه اللهُ قبل آدمَ عليه السلام بفترة، لا يَعلمُ مقدارَها إلاّ الله، وشهدَ أحداث قصةِ آدم في الجنة، وهبط مع آدمَ إلى الأرض، وعاشَ حياة البشرِ على الأرض منذ ساعاتِها الأولى، وبقي حياً يشهدُ مرورَ آلافِ وملايين السنين، ويَرى تعاقُبَ الأجيال من البشر، ويمارس دورَه في الإغواء والإفساد. وبعدَ ذلك سيموتُ قبيل قيام الساعة.

إنّ معنى هذا أنْ يَعيشَ إبليسُ ملايين السنين، فهو من أطولِ المخلوقاتِ عمراً.

لكنّه بعد ذلك سيموت، لأنّ كُلّ مخلوقٍ سيموت.

(٢٥)
تعهد إبليس بالإغواء وصفات الناجين منه

بعد أن يئسَ إبليسُ من كلّ خير، وأيقنَ باللعنِ والرّجم، وضمنَ أنْ يعيشَ إلى قيلِ قيامِ الساعة، أعلنَ عن رسالته الشيطانيةِ في إفساد بني آدم، وقَطعَ على نفسِه عهداً بذلك أمامَ الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧]

وقد خاطب إبليسُ ربّه بتوقُّح، عندما نسبَ إغواءَه إليه: "بما أغويتني" والإغواءُ هو: الإضلال. أي: أنتَ يا ربِّ الذي أغويْتني وأضلَلْتني.

وهذا كذبٌ إبليسي مفضوح، واقامٌ لله بالباطل! هل اللهُ هو الذي أغْواه؟ ومتى أغواهُ؟ وكيف؟

ماذا فعلَ اللهُ به؟ لقد خَلَقَه وأكرَمَه، ورحمَه وأنعمَ عليه، وجَعلَه في الجنة، ثم أمَرَهُ أن يَسجدَ لآدَمَ. وهل أمْرُهُ أن يسجدَ لآدَم إغواءٌ وإضلال؟ إنه تكريمٌ وتشريفٌ له، لأنه كلّفَه وأمَره! وهل أغوى اللهُ الملائكة وأضلّهم عندما أمرهم أن يسجُدوا لآدَمَ؟

سبحانك ربي هذا بهتانٌ إبليسيٌّ كبير!

إن إبليسَ هو الذي أغوى نفْسَه وأضلّها، عندما تمردَ على اللهِ وعَصاه. لقد أسعدَ الملائكةُ أنفسَهم بتنفيذِ أمرِ الله، وأهلكَ إبليسُ نفسَه بإبائِه وامتناعِه، وهو بذلك أغوى نفسَه! فكيف يقولُ لربّه: أنتَ الذي أغويتني؟

هذا المنطقُ الشيطانيُّ المغلوطُ هو نفسُه منطقُ كُلِّ كافرٍ وعاصٍ ومنحرف. عندما ينسبُ كفْرَه وانحرافَه إلى الله. ويقول: اللهُ لا يُريدُ أنْ يَهديني، وهو الذي يُريدُ أنْ أكفرَ وأعصي، ولو لم يُردْ ذلك لمنعني منه!.

وإبليس هو الذي أوحى لجنوده بهذا التبريرِ الشيطانيِّ الكاذب!

الشر والافساد رسالة إبليس:

جعل إبليسُ رسالتَه الشرّ والإفساد، وإبعادَ أبناء آدم عن طريقِ الخير، وإيقاعَهم في الهاوية. قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ

﴿ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

يقعد لبني آدمَ على صراطِ اللهِ المستقيم، ليمنَعَهم من سلوكِه والسيرِ عليه، ويَصُدّهم عنه إلى السبلِ المعْوَجة، القائمةِ على الكفرِ والانحرافِ والرذيلة.

وكلما أرادوا الاقترابَ من الصراط المستقيم يَصدهم عنه، بوساوسِه ونزغاتِه، وحيله وهَمَزاتِه، وسيأتيهم من بين أيديهم من جهة الأمام، ومن الخلف، وعن اليمين، وعن الشمال! وهذا للمبالغةِ في إطْباقِه عليهم وتمكُّنه منهم، وحرْصِه على أنْ لا يستيقظوا أو يَعودوا إلى الله.

وبذلك سيكونُ معظمُهم صرعى الشيطان، ولن يكونوا عابدين وشاكرين للّه! وأخبرَنا اللهُ عن الرسالةِ الشيطانيةِ المدمّرةِ المفسِدة في آياتٍ أُخرى. منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]

وَجّهَ إبليسُ كلّ جهودِه لإغواءِ بني آدم، وسلّط عليهم أسلحته الشيطانيةَ للاستحواذ عليهم.

لكنه يعلمُ أنه لن ينجحَ في إغواءِ عبادِ الله الصالحين، فاعترفَ بعجزِه عن ذلك، واستثناهم من جنودِه الهالكين: "لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين".

"عبادَك": مستثنى منصوبٌ في الآية. والمستثنى منه ضمير "هم"، الذي هو في محلّ نصبِ مفعولٍ به، في قوله "لأغوينهم"، و "المخلصين" صفةٌ منصوبةٌ للمستثنى "عبادَك".

وجاءَ هذا العهدُ الشيطانيُّ في آيةٍ ثالثةٍ في صيغة قسم من الشيطانِ بعزّة الله. قال تعالى: "قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين".

العباد المخلصون ناجون من الشيطان:

اللافتُ للنظرِ أنه وَصَف الناجينَ من إغواءِ الشيطانِ بصفَتَيْن:

الأُولى: "عبادَك": حيث تمثّلتْ فيهم العبوديةُ الحقةُ لله، وأدّوا شعائرَ العبادةِ لله، فاستحقوا كرامةَ الإضافة إلى الله "عبادك"، إضافة تشريف وتكريم.

الثانية: "المخلَصين" وهي صفةٌ مشتقّةٌ من الإخلاصِ لله، وقائمةٌ عليه. و"المخلَصين" في الآية بفتح اللام، وهي اسم مفعول، اسم الفاعل "مُخلِصين" بكسْرِ اللام. والماضي منه رباعيّ "أخلص".

وهذه الصفةُ معناها أنْ يُخلصَ المؤمنُ في عبادتِه لله، ويَجعلَ حياتَه كلّها خالصةً لله، ويبقى ملتزماً بالعبوديةِ لله، وإذا بقيَ على هذا فإنه يكونُ "مخلِصاً"، من عبادِ الله المخْلصين.

وإذا علمَ اللهُ صدقَ هذا العابدِ له وإخلاصَه، فإنه سوفَ يختارُه ويستخلصُه ويَصطفيه، وبذلك يكونُ من عبادِ الله المخلَصين.

إنّ الوسيلةَ الوحيدة للنجاةِ من كيدِ الشيطان هي تحقيقُ العبوديةِ لله، بالإكثارِ من عبادتِه، والإخلاصِ الصادقِ له.

(٢٦)
من أسلحة الشيطان في إغواء أتباعه

أخبرَنا اللهُ عن تعهُّدِ إبليس بإغواءِ بني آدم، وذَكَرَ لنا طريقَ الخلاصِ والنجاةِ منه.

وعرَّفنا على بعضِ وسائل إبليسَ وأسلحته ضدّنا، لنكونَ على بصيرةٍ من أمرنا. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء:٦١-٦٥]

حقد إبليسُ على آدم لأنّ الله كرمه عليه: "أرأيتك هذا الذي كرمت علي".

ومعنى "أرأيتك": أرأيْتَ. والكافُ في الفعل حرفُ خطاب، لا محل له من الإعراب، جيءَ به لزيادة توكيد الفعل.

إبليس يحتنك أتباعه:

تعهد إبليس بإغواءِ ذريةِ آدم، وطلبَ تسليطه عليهم، وإمهالَه إلى يوم القيامة: "لأحتنكن ذريته إلا قليلاً".

وفعْلُ "أحتنكن" مأخوذٌ من الحَنَك، وهو أسفلُ الذقْنِ من الوَجْه. وحَنَكُ الدابّةِ هو الذي يوَضَعُ فيه لجامُها ومِقوَدُها لتُقادَ منه.

واختيارُ "الحَنَك" هنا مقصود، ويَرسمُ فعْلُ "أحتنكن ذريته" صورةً عجيبةً مؤثّرة.

إن إبليس يقودُ كلّ إنسانٍ من جنودِه من حَنَكِه، وكأنّهُ يضعُ في حَنَكِه خطاماً، ويربطُه بحَبل، ويسحبه منه، وذلك المسكينُ يسيرُ خلفَه مستسلماً منقاداً ذَليلاً.. وهو في ذلك كالدّابة التي يوضَعُ "الرّسَنُ" في حَنَكِها، فيقودُها صاحبها، وهي مستسلمةٌ خلفه.

وما أعجب منظر "صريع" الشيطان، والحبلُ مربوطٌ في حَنَكِه، والشيطانُ أمامه يقودُه إلى عالمِ الإنحراف والمعاصي. ومَن الذي يرضى أن يكون كالدابة، يُقادُ من حَنَكِه؟!.

وقد ابتلى الله ذريةَ آدم بإبليس، ليمتحنَهم، ويَعلمَ مَنْ يسيرُ منهم مع إبليس، ومَنْ يلتزمُ بشرعِ الله.

وقد بَيَّنَ اللهُ للناسِ الطريق، وأقامَ عليهم الحجة، وأرشدَهم إلى جنتِه ورضوانه، وحَذَّرَهم من الشيطان وحبائلِه. وعليهم بعد ذلك أنْ يَختاروا، شرطَ أنْ يَتحملوا مسؤولية ونتيجةَ اختيارهم!.

ولذلك قالَ لإبليس: "اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً"، وإن إبليسَ يعلمُ أنه يَسيرُ بجنودِه إلى جهنم، وجنودُه يَعلمون أنهم يسيرونَ خلفَه إلى جهنم.

بعض أسلحة الشيطان ضدنا:

من أسلحةِ الشيطانِ في إغواءِ بني آدم، التي ذكرَتْها هذه الآيات:

١- ما في قوله تعالى: "واستفزز من استطعت منهم بصوتك".

والاستفزازُ هو الإزعاجُ الشديدُ والتأثيرُ البالغ، بسبب الانفعالِ بالصوتِ العالي.

لإبليسَ أصواتٌ عاليةٌ يُطلقُها ويَرفعُها، لِيؤثرَ بها في جنودِه، ويستفزَّهم ويُخدرهم، ويَصرعَهم ويُهلكَهم، وهم يَنفعلون مع تلك الأصواتِ الشيطانية، ويَخْضَعون لتأثيرِها واستفزازها.

وأصواتُ الشيطانِ تَملأُ العالَمَ في هذا الزمان، وتَسحرُ الذين يَسَمعون لها، ويَتفاعلونَ معها، وهي تَتمثلُ في آلاتِ العزفِ والموسيقى الصاخبةِ المجلجلة، وفي الأغاني الفاجرة، والرقصات الخليعة، والكلامِ الذي يقالُ في الأفلام والمسرحياتِ والتمثيليات، وبرامج الإذاعاتِ والمرئيات والفضائيات.

والناسُ صرعى مخَدَّرون مسحورونَ بهذه الأصواتِ الشيطانية، ولا مجال عندهم لسماع الأصواتِ الإيمانيةِ الرحمانية الهادية.

٢- وما في قوله تعالى: "وأَجْلِبْ عليهم بخيلك وَرَجِلِك".

يُجلبُ إبليسُ على جنوده، ويَستحوذُ عليهم، ويتمكّنُ منهم ويتملّكُهم، ويَسوقُهم إلى حيثُ يريد، وهم مستسلمونَ بدونِ همّة ولا فكْرٍ ولا بَصيرة.

الراعي هو الذي يُجلبُ على غَنَمه، ويَصيحُ بها ويَسوقُها، وهي قطيعٌ يتحرك بأمرِ الراعي وصوته. وجنودُ الشيطانِ غَنَمٌ يَجلبُ هو عليهم ويَصيحُ بهم!!.

وللشيطان " قواتٌ خاصّة " يستعينُ بها على أتباعِه المخدرين. بعضُ هذه القوات فُرسانٌ يَرْكبون الخيل.. وبعضُها "مُشاة" راجلون، يمشون على أرجلِهم وأقدامِهم!.

إن قوله "وأجلب عليهم بخيلك ورجلك" يُصَوِّر جُنودَ الشيطانِ جَيْشاً من الفرسانِ والمشاة، ويَجعل للشيطانِ خيلاً يستخدمُها في غزوِ الناس، وحَرْباً تشنُّها قواتُه عليهم! وهذا للمبالغةِ في تأكيدِ جهودِه ومكائدِه في إغواءِ أتْباعه.

٣- وما في قوله تعالى: "وشاركهم في الأموال والأولاد".

إنّ إبليسَ يشاركُ أتباعَه في أموالِهم، ويُشاركُهم في أولادهم.

ومشاركةُ أتباعِه في أموالِهم عندما يَدعوهم إلى جمعِها من الحرام، كالربا والسرقةِ والرشوةِ والنهب، والمتاجرة بالمخدراتِ والأعراض، ويَدْعوهم إلى إنفاقها في الحرام، وتضييعها بالتبذيرِ والإسراف.

وما أكثر الأموالِ العامةِ والخاصةِ في هذا الزمان، التي يُشاركُ فيها الشيطانُ أصحابَها، وما أكثرَ الشركاتِ الشيطانيةِ الاقتصاديةِ والتجاريةِ في الغرب والشرق، التي قامتْ على أساسِ الشراكة مع الشيطان.

وكما يشاركُ الشيطانُ أتباعَه في أموالِهم كذلك يشاركُهم في أولادِهم: فيشاركُ الرجُلَ امرأته أولاً، عندما تكون حياتُهم الجنسيةُ والعائليةُ قائمةً على إغضابِ اللهِ وإرضاءِ الشيطان، وعندما ينشأ أولادُهم في البيتِ نشأةً شيطانية، وفقَ وساوسِ الشيطانِ وتوجيهاته، فينْبُتون نَباتاً شيطانياً، ويَنْمونَ نمواً شيطانياً، ويكونون في شبابِهم وجهودِهم وطاقاتِهم حَصاداً شيطانياً.

٤- وما في قوله تعالى: وَعِدْهُم .. ما يعدهم الشيطان إلا غروراً".

وحتى يضمن إبليسُ استسلامَ أتْباعه له، فإنه يقدم لهم الوعودَ البَرّاقة، ويُريهم أنهم على خير، وأنهم يُحسنون صنعاً، وأنّ الأعمالَ التي يَفعلونها صواب، وسيُحققون منها الفائدةَ والسعادة.

يَعِدُهم الوعودَ الفارغة، ويمنيهم الأمانيَّ الخيالية، ويُزينُ لهم سوءَ أعمالِهم، فيرونَها حَسنَة. وهو بذلك يَضُرُّهم ويَخدَعهم: "وما يعدهم الشيطان إلا غروراً".

أي: ما يَعدُهم إلا خِداعاً وسراباً وضياعاً. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء:١١٩- ١٢٠]

وبعد ما مَكّنَ اللهُ للشيطان عنـــد أتباعــه أخـــبره أنـــه لا ســـلطانَ لـــه علـــى العبـــادِ الصالحين: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. وكفى بربك وكيلاً.

(٢٧)
وجوب اتخاذ الشيطان عدواً

أخبرَنا اللهُ أنه رغمَ أسلحةِ الشيطانِ الخطيرةِ المؤثّرة في أتْباعه، فإنه عاجزٌ عن التأثير في عبادِ اللهِ الصالحين، وكيدُهُ العظيمُ القويُّ الموجَّهُ لأتْباعه ضعيفٌ عندما يوجّهُه ضدّ المؤمنين، وهذا صريحٌ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦]

وسلطانُ الشيطانِ الكبيرُ إنما هو على جنودِه وحزبِه وأتْباعِه، وهذا السلطانُ لا أثَرَ له على العبادِ الصالحين، الذينَ يستعيذونَ باللهِ منه، ويحتمون به، فيُعيذهم ويَحميهم سبحانه وتعالى. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]

وقد حَذّرَنا اللهُ من عداوةِ الشيطان، وأمَرَنا بالانتباهِ لمكائده وأسلحتِه، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧]

إياكم أن يفتنكم الشيطان، واحتَرسوا منه وانتبهوا له، وله أساليبٌ وطرقٌ عجيبةٌ مخادعة، يُسقطُ أتباعَه بها، فاعرِفوها واحذروها.

وأخبرنا اللهُ أنّ هذا الشيطان له " قبيلٌ " وجماعةٌ وجنودٌ من الجنّ، الذين اتبعوه واستجابوا له، وصاروا "أدوات" له في السيطرة على الإنس.

والشيطانُ وجماعتهُ من شياطينِ الجن يرونكم يا بني آدم، ويَعرفون أخبارَكم، ويَطّلعون على أحوالكم، أما أنتم فإنكم لا ترونَهم رؤيةً طبيعيةً سوية.

ونحنُ لا نرى الجنّ وشياطينهم وعلى رأسِهم إبليس، لأنهم خُلقوا من مارج من نار، وجعل اللهُ لهم قدرةً على التّخفّي والاستتار. ولا يَراهُم إلاّ منْ كان به مسٌّ من الجن، أو سلَكَ لذلك طُرقاً خاصة. أما الإنسانُ العاديُّ فإنه لا يَرى الجِنَّ.

وكونُ شياطينِ الجن يرونَنا من حيثُ لا نَراهم يوجِبُ علينا مزيدَ الحذَر منهم، والانتباه إلى مكائدِهم، وصدقِ اللجوء إلى الله وطلبِ حمايتِه منهم.

وأمَرَنا اللهُ أنْ لا نعبدَ الشيطانَ، لأنه عَدُوٌّ لنا، بل نعبدُ اللهَ سبحانه وحده. ويومَ القيامة يحاسبُ الذين عَبَدوا الشيطانَ ويوبخُهم. قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦١]

وكم يخسرُ الذين يتخذونَ الشيطانَ صديقاً ناصحاً، ولا يَتّخذونَه عَدُوّاً. فاللهُ أمَرَنا باتخاذه عدواً قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦]

الناس أصناف أمام الشيطان:

إن بني آدم بالنسبةِ للشيطانِ أصناف:

- صنفٌ اعتَبَروه ناصِحاً صَديقاً مخلِصاً، فاتّخَذوه وليّا، وأخَذوا بتوجيهاته، ونَفّذوا تعاليمَه، وصاروا من حزبِ الشياطين الهالكين، فخسِروا حياتَهم ودنياهم، وخسِروا آخرتَهم ونعيمهم، وقادَهم الشيطانُ إلى النار. ولهذا قال تعالى: "إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير".
- وصنفٌ مسلمونَ بالهوية، أخبرهم اللهُ أنّ الشيطان عدوٌ لهم، فعلموا ذلك، لكنهم خالَفوه في حياتِهم العَمَلية، فركَنوا إلى الشيطان، واستجابوا له، وأخذوا بنصائحه وتوجيهاته، مع أنهم يَعلمونَ أنه عدوٌّ لهم، وأنَه لا يريدُ لهم إلاّ الشرّ.
- وصنفٌ مؤمنونَ صالحون، صَدَّقوا كلامَ الله، والتزموا به، ولما أخبرهم اللهُ أنّ الشيطان عدوٌّ لهم علموا ذلك، ولما أمرهم باتخاذه عدواً نفذوا أمر الله، فاتَّخَذوه عدوّاً، وكانوا حَذِرينَ منه، ملْتجئين إلى الله.

وهؤلاءِ هم المفلحون الفائزون، في الدنيا والآخرة.

إنّه لا يَكفي أنْ نَعلمَ أنّ الشيطانَ عدُوٌّ لنا، فهذا جزءٌ مهمّ، لكنّه يمثلُ الجانبَ النظريّ العلميّ المعرفيّ، ولا بُدَّ أنْ ينعكسَ ذلك الجانبُ النظريُّ على حياتِنا، وذلك بأنْ نتخذَ الشيطانَ عَدُوّاً، وأنْ نحذرَ مكائده، ولا نستجيبَ لوساوسه.

وكم يخسرُ الذينَ يَتّخذون الشيطانَ وجنودَه وذريتَه أولياءَ من دونِ الله. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]

ومَنْ هو الذي يَرضى بالشيطانِ بَديلاً عن الله، وبولايـــة الشــيطانِ بـــديلاً عـــن ولايـــةِ الله، ويَختارُ غضب اللهِ بالسير مع الشيطان الرجيمِ الملعـــون، وبتـــركُ رحمـــةَ اللهِ بإحســـانِ عبادتـــه وطاعته؟ ماذا يُقالُ عن مَنْ فعلَ ذلك؟ "بئس للظالمين بدلاً" !!

(٢٨)
دفاع عن أمنا حواء

عاشَ آدمُ في الجنة وَحيداً ما شاءَ الله له أنْ يعيش، ولا يعلمُ مقدارَ تلك المدة إلاّ الله سبحانه وتعالى، وكان في تلك الفقرة ذاكراً مسبحاً لله، كالملائكة الذين معه وحولَه في الجنة، ويستمتعُ بخيرات الجنة.

وكانَ إبليسُ في الجنةِ أيضاً، لكنه يعلمُ أنه مرجومٌ ملعون، محكومٌ عليه بالإخراج من الجنة، لكنَّه لا يَعلَمُ متى سيكونُ ذلك الإخراج.

لقد قال اللهُ له: "اخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين" وقال الله له: "اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين".

وبذلك عَرّفَه أنه لم يَعُدْ له مكانٌ في الجنة، وأنه أحلّ به لعنَتَه وغضَبَه، وأنه لا بُدّ أنْ يُطْرَدَ من الجنة، لكنه لا يَعلمُ متى سيُخرجُه اللهُ منها، فقدْ يُطْرَدُ منها فجأةً في أيِّ وقت.

وكان خلال هذه الفترة ينظرُ إلى آدمَ نظرةَ حقْد، كان يحقد عليه ويَكرهُه ويُبغضهُ، لأنه – في زعْمِه– السبب في كلّ ما أصابَه، وكانَ ينتظر الفرصةَ المناسبة للأخذِ بثأرِه من آدمَ، لا سيَّما أنه كانَ يعرفُ نقطةَ ضعفه، وهي أنهُ خَلْقٌ لا يتمالَك.

وشاءَ اللهُ الحكيمُ سبحانَه وتعالى أنْ يَخلقَ المرأةَ الأنثى، لتكونَ زوجاً لآدم، وليكونَ آدمُ بدورِه زوجاً لها!وبينما تحدَّثَتْ آياتُ القرآنِ عن مراحلِ خلقِ آدم، فإنها لم تتحَدثْ عن تفاصيل خلقِ امرأتِه، وبقيتْ تفاصيلُ خلقِها من "مبهماتِ القرآن" التي لا نستطيعُ بيانها، لعدم وجودِ أدلةٍ معتمدةٍ من الكتاب والسنة.

حواء وخيانة النساء لأزواجهن:

لم يذكر القرآنُ اسمَ زوجِ آدم، ولكنْ ذكرَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. روى البخاريُّ (برقم: ٣٣٣٠) عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال: "لولا بَنو إسرائيلَ لم يخْنُز اللحم، ولولا حَوّاءُ لم تَخُنْ أنثى زوجَها..".

اسمُ أمِّنا هو "حَوّاء". والراجحُ أنَّ هذا الاسمَ أعجمي، وليس عربيّاً مشتقاً من الحياة، كما زعمَ بعضُهم، لأنَّ "حوّاء" عاشَتْ وماتَتْ قبل أنْ يوجَدَ أول عربيٍّ يتكلم باللغةِ العربية، واللهُ أعلم.

ومعنى "خَنَزَ اللّحم": تَغَيّر وأنْتَنَ وفَسَد.

لقد كان بنوا إِسرائيل سَبَباً في خَنَزِ اللحْمِ ونَتَنِـه، فلـم يفسـد اللحـمُ قـبلَهم، ولقـد كان الناسُ قبل بني إسرائيل يأكلونَ اللحمَ ويأخُذون حاجَتَهم منه، ولعـلَّ مـا زادَ عـن حـاجتِهم كانوا يعطونَه لغيرِهم، فلم يَفْسد اللحم.

أمّا بنو إسرائيل فإن بُخلهم دَفَعهم إلى أنْ يحتفظوا بمـا زادَ عـن حـاجتِهم مـن اللحـم، وعدمِ إعطائِه لغيرِهم، ولم تتوفّرْ في زمانِهم أدوات حفـظ اللحـم وتبريـدِه، المتـوفرةُ للنـاس في زمانِنا، ولذلك خَنَزَ اللحم، وكانت بدايةُ ذلك زمن بني إسرائيل.

ومعنى قوله صلى الله عليه سلم: "ولولا حَـوّاء لم تَخـنْ أنثـى زوجهـا"، أن "حـواء" هي النموذجُ للمرأة الأنثى، وينطبقُ هذا على بناتها في تاريخ البشرية.

وليس المرادُ بالخيانةِ هنا الخيانة بالعِرض، وارتكابُ فاحشـةِ الزنـا، فـإنّ أمنّـا حـواءَ لم تكن كذلك، بل كانتْ عفيفةً طاهرة.

المرادُ بالخيانةِ هنا الخيانةُ في الدّين، وتزيينُ ارتكاب المعصية.

ومعنى هذا أنّ معظم "بنات حوّاء" لهنّ دورٌ كـبيرٌ في إِغـراء أزواجهـن بفعْـلِ الحـرام، حيث تستخدمُ الواحدةُ منهنّ أسلحتها المؤثرةَ في حملِ زوجِهـا علـى المعصـية، ومعظـمُ الرجـال يَستسلمونَ ويستجيبونَ ويرتكبون الحرام.

ولا يُفهمُ من هذا الحديثِ أن أمنا "حـواء" هـي الـتي زينـتْ لآدمَ ارتكـابَ المحـذور والأكلَ من الشجرة المحرمة، وسنتكلمُ عن هذا المشهد من القصة فيما بعد بعون الله.

إن المرادَ بحوّاءِ في الحديث أيّ إمرأةٍ تُزَيّنُ لزوجها فعْـلَ الحـرام وبـذلك تكـونُ خائنـةً له.

(٢٩)
آدم وحواء خلقا من نفس واحدة

حواءُ زوجُ آدم، لم يُفصل القرآنُ خَلْقَها، ووردتْ آيةٌ قرآنيةٌ مبهمةٌ، تشيرُ إلى ذلك. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]

وقد ذهب بعضُ العلماء والمفسرينَ إلى أنّ حواءَ مخلوقةٌ من نفس آدم، واعتمدوا في ذلك على ظاهرِ قوله تعالى: "وخلق منها زوجها" أي أنّ حواء مخلوقةٌ من بعضِ جسمِ آدم، لأنّ "مِنْ" يدلُّ على التبعيض، وهذا البعضُ هو ضِلْعُ آدمَ.

ولا نعتبرُ الآية دالّةً على هذا، لأنّ الآيةَ تتحدثُ عن تكريمِ اللهِ للرجالِ والنساءِ جميعاً.

يُخبرُنا اللهُ أنه خَلَقَنا نحنُ البَشر "من نفسٍ واحدة"، وخَلَق من هذه النفس الواحدة زوجها.

خلق الرجل والمرأة من النفس الواحدة:

المراد بالنفس الواحدةِ هنا النفسُ الإنسانية، التي تتمثلُ فيها الطبيعةُ البشرية، هذه النفسُ المكونةُ من مادّةٍ وروح، والمتمثلُ فيها الكيانُ البشريُّ بما فيه من أعضاء وأجهزة، يقومُ عليها جسْمُه الماديّ، وبما فيه من مشاعِرَ وأحاسيس، وصِفاتٍ وسمات، وغرائز وشهوات، وآمالٍ وتطلعات، وما فيه من قلبٍ وروح وتصورٍ وفكرٍ وخيال.. هذا الكيانُ الإنساني كله هو النفس الواحدةُ التي خلَقَها الله.

وخلقَ الله من هذه النفس الواحدة المتكاملةِ الرجل، ثم خَلَقَ من هذه النفسِ الواحدةِ المتكاملة المرأة.

وأولُ نموذج عمليّ للنفسِ الواحدة هو آدمُ أبو البشر عليه السلام، الذي تمثلتْ فيه النفسُ الواحدةُ بكامل خصائصها وسماتها.. وثاني نموذجٍ للنفس الواحدة زوجُه حواء، التي خلقَها الله، وجَعلها زوجاً له، وتمثلَت فيها النفسُ الواحدةُ بكاملِ خصائصها وسماتها، مع فروقٍ فرديةٍ جعَلَها اللهُ الحكيم – بيولوجياً وعاطفياً – بينَ الرجلِ والمرأة، ليقومَ كلٌّ منهما بدورهِ في الحياة.

وهذا معناهُ أنّ الرجلَ نفسٌ إنسانيةٌ سويةٌ، بجسْمِه وروحِه وشخصيته، وأنّ المرأة نفسٌ إنسانيةٌ سويةٌ، لها جسمُها وروحها وشخصيّتُها، وهي معززَةٌ مكرمةٌ كالرجل، وليستْ أدنى أو أحطّ منزلةً منه، وهذا تكريمٌ وتشريفٌ عظيمٌ للمرأة.

ليس المرادُ بالنفس الواحدة في الآيةِ آدمُ عليه السلام حتى نقول: إنّ اللهَ خَلَقَ له منه زوجَه حوّاء. إنما هي النفسُ الإنسانيةُ التي خَلَقَ اللهُ منها آدَمَ أولاً، ثم خلق منها حَوّاء بعد ذلك، ثم بَثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء.

واللطيف أن هذه الآية التي تتحدثُ عن النفسِ الواحدة، التي خلقَ اللهُ منها الرجلَ والمرأة، في صدر سورة النساء، التي تحدثَتْ كثيراً عن النساءِ وأحكامِهن.

وبهذا نرى أنّ القرآنَ – والإسلامَ – قد كَرّم المرأة تكريماً عظيماً، عندما اعتبَرها كياناً بشرياً شَريفاً فاضِلاً، مَخلوقاً من النفسِ الواحدةِ التي خُلِقَ منها الرجل!!.

(٣٠)
اندفاع المرأة والضلع الأعوج

عرفنا من خلال آيات القرآنِ أنّ حَوّاءَ خُلقتْ - مثْـلَ آدم – مـن الـنفس الإنسـانية الواحدة، لكنْ أخبرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنّ حَوّاءَ خُلِقـتْ مـن ضِـلْع، فمـا المـرادُ بذلك الضلع؟

روى البخاريُّ (برقم ٣٣٣١) ومسـلم (بـرقم: ١٤٦٨) عـن أبي هريـرةَ رضـي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "استوصوا بالنساءِ خَيْراً، فـإن المـرأة خُلِقـتْ مـن ضِلْع، وإنّ أعوجَ شيء في الضِّلْع أعلاهُ، فإنْ ذهبْتَ تُقيمه كسـرتَه، وإن تركتـهُ لم يـزلْ أعـوج، فاستوصوا بالنساء خيراً".

يوصي رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم في هـذا الحـديثِ الرجـالَ بالنسـاءِ خـيراً، ويأمرهم بحسنِ عشرتِهن وتحمُّلهنّ ، ويُبينُ طبيعة النساءِ العجيبة.

لقد صرحَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأنّ المرأة خُلِقـتْ مـن ضـلْع، وإنّ الضـلعَ لا يمكنُ تقويمُه وإزالةُ اعوجاجِه، وكذلك المرأةُ لا يمكن تقويمُها وإزالـة اعوجاجِهـا، ولا بُـدّ مـن التعامل معها على هذا الأساس، والاستمتاعِ بـها على عِوجها.

رفض الإسرئيليات في الضلع الذي خلقت منه المرأة:

حملَ بعـضُ العلمـاءِ الضـلْعَ المـذكورَ في الحـديثِ علـى ظـاهره، واستصْـحَبوا في ذاكرتِهم الاسرائيليات التي تحدّثتْ عن خلقِ حواءَ من آدم، وقـالوا: يُصَـرِّحُ الحـديثُ أنّ حـواءَ خُلِقَتْ من ضلع آدم! فلماذا أنتم تخالِفونَه ولا تقولونَ بذلك؟

تُخبرُ الإسـرائيلياتُ وأساطير العهدِ القديم أنه بينمـا كـانَ آدم نائمـاً وحـده في الجنـة، أخذَ اللهُ ضلعاً من أضلاع جانبه الأيْسر، وخلَقَ مـن ذلـك الضـلع حـواء في لحظـة، وجَعلـها امرأة حيّةً فيها كلُ الملامحِ الأنثوية، وجلست بجانب آدم، فلما اسـتيقظَ ورآهـا، قـال لهـا: مـنْ أنت؟قالت له: أنا حواء! قال لها: وما معنى ذلك؟ قالت: أنا أمرأتُـك، خلَقَـني اللهُ مـن ضِـلْعك، وجَعَلَني لك! فتحسّسَ آدم أضلاعَه فوجَدَها ناقصةً، فَحَنَّ إلى حَوّاء لأنها جزءٌ منه!!.

هذه إسرئيلياتٌ موجودةٌ في أسفارِ العهدِ القديم، وقـد نَقلَهـا الإخبـاريّون المسـلمون، لكنه لا يوجَد في القرآن والسنة الصحيحةِ الصريحة ما يؤيـدُها، ولـذلك نتوقـف نحـنُ فيهـا، لا نصدقُها ولا نكذّبها ولا نقولُ بـها، والعلم عند اللهِ سبحانه!

اعوجاج المرأة نفسي:

إن الحديثَ الصحيحَ السابقَ لا يدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ حواءَ خُلقَتْ من ضلعِ آدم.. وإنّ الحديث لا يتكلمُ عن أمِّنا حواء، وإنما يتكلمُ عن المرأة عُموماً، ويُعرِّفُنا على طبيعة كلِّ إمراةٍ من بنات حَوّاء.

يُبينُ الحديثُ طبيعة المرأةِ المعوَجَّة، وهذا ليس اعوجاجا ماديّاً، وإنما هو اعوجاجٌ نفسيٌّ معنوي.

وهو يُشيرُ إلى التركيبِ النفسيِّ العاطفيِّ الانفعاليِّ للمرأة بشكلٍ عام، فاللهُ الحكيمُ خَلَقَ المرأةَ – على الغالب – عاطفيةً انفعاليةً مندَفعة، وذلك لتُحققَ وظيفَتها في الحياة. بينما خَلَقَ اللهُ الرجلَ – على الغالب – متّصِفاً بالموضوعيةِ والتأني والرّويّةِ والتفكير، وذلكَ لتحقيقِ رسالتِه في الحياة، التي تَحتاجُ إلى هذه الطبيعة.

ولتقريبِ الطبيعة العاطفيةِ الانفعاليةِ عند المرأةإلى أذهانِنا، يُصوِّرُ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا التصوير البليغ المعَبِّر، حيثُ عرضَ ذلك في صورةِ ضِلْع.. فمن المعلوم أنَّ الضلعَ أعوج، وأنّ أعوجَ ما في الضلع أعلاه، وأنه يستحيلُ تقويمُ الضلع وإزالةُ اعوِجاجِه، ومَنْ فعلَ ذلك فسوفَ يَكْسِره، وعلى الإنسان أن يتصرف مع الضلع على أساسِ اعوجاجِه.

وهكذا خلقَ اللهُ المرأة عموماً، عاطفيةً مندفعةً منفعلَة، وقَلّما نرى امرأةً متأنّيةً في أفكارها، متوازنةً في مشاعرِها، موضوعيةً في أحاسيسِها، تُحسنُ ضبطَ انفعالاتها، إنها تُغالي وتبالغ إذا أحَبَّتْ، وتُغالي وتُبالغُ إذا كَرِهَتْ، وتُغالي وتُبالغُ إذا تكلمتْ أو قَوَّمَتْ أو حكمتْ أو نقدتْ.

تعيشُ المرأةُ مع زوجِها سنواتٍ وسنوات، ويُقدمُ لها زوجُها فيها كلّ خير، فإذا أساءَ لها مَرّة، أو قَصّرَ في حَقِّها مرة، نسيَتْ كلّ سنوات الإحسان، وكَفَرَتْ معروفَه، وقالتْ له: ما رأيتُ منكَ خَيْراً قط!!.

وخَلَقَها اللهُ بهذه العاطفية لتؤَدي رسالَتها في الحياة، التي تتطلبُ منها ذلك.. وإذا ما أرادَ الزوجُ حمل امرأتِه على التأني والموضوعية والتوازن، فإنها لا تَتَجاوبُ معه، وإذا ما أصَرَّ على ذلك فسوف يُطَلّقُها، فلا بُدّ أن يَتقبلَها كما هي، ويستمتع بها على عِوَجها!.

هذا مقصودُ الحديث، ولا يدلُّ على أنّ حَوّاء خُلقَتْ من ضلع آدمَ الأيْسَرَ الأعوج!!.

(٣١)
حكمة التزاوج بين الزوجين

بعد ما خلقَ اللهُ حَوّاءَ أخبرَ آدمَ أنها "زوجٌ" له، كمــا أنــه هــو "زوج" لهــا.. وينطبــقُ هذا على الأزواجِ من البَشر، فالرجلُ زوجٌ لامرأتِه، وامرأتهُ أيضــاً زوجٌ لــه، وكــلٌ منــهما زوجٌ للآخر.

وفي هذا دلالةٌ عجيبةٌ على الصلةِ الوثيقةِ الدقيقةِ بين الــزوجَيْنِ، فــلا تســتقيمُ الحيــاة، ولا تتحققُ الخلافة، إلا بهذه "الزوجية"، وما ينتجُ عنها من " تزاوجٍ " واتحادٍ وتَلاحُم.

ومعنى هذا أنّ الرجلَ بمفرده لا يمكنــهُ تحقيــق ذاتــه، ولا عمــارةُ الأرض، ولا ممارســة الحياة. وهناك جزءٌ مهمٌ من كيانهِ فارغ، لا تملأه إلاّ المــرأةُ زوجُــه، فهــي بزوجيّتِهــا لــه تكمــلُ نقصه، وتملأ فراغَه، وتُحقق إنسانيتَه. وقلْ مثلَ هذا في المــرأة، فإنهــا لا يمكنُهــا بمفردهــا تحقيــقُ ذاتِها، ولا عمارةُ الأرض ومُمارسة الحياة، ففي كيانها جــزءٌ مهــمٌ فــارغ، لا يمــلأهُ إلاّ الرجــلُ زوجُها، فهو بزوجيتِه لها وزواجِه منها يكملُ نقْصَها، ويملأ فراغَها، ويحققُ إنسانيتَها.

ولا بُدّ من الحياة الزوجية الكاملةِ لسدّ النقصِ وملء الفــراغ، عنــد كــلٍّ مــن الرجــل والمرأة، الحياةِ الزوجيةِ القائمة علــى اللقــاءِ النفســي والروحــيّ والقلــبيّ والعقلــيّ والجســديّ بينهما، والتي ينــتجُ عنــها الأســرةُ والأولاد، والاتفــاقُ عــى الهمــومِ والآمــالِ والتطلعــات المشتركة، وكلما زادت الحياةُ الزوجيةُ مُدَّة، زادَ التوافق والالتقاءُ والتزاوجُ مَتانة.!

ولا يمكنُ للّقاءِ الجسديّ العابر بين الرجلِ والمــرأة، وقضــاءِ الشــهوةِ وممارســةِ الجنــسِ بينهما من تحقيقِ التزاوج، وسَدّ النقص، لأنه ليسَ الهــدفُ التقــاءَ جســدٍ بجَسَــد، بــل الهــدفُ السُكون الروحيّ والقلبيّ والنفســيّ والشــعوريّ والجســديّ والاجتمــاعيّ لكــلّ منــهما تجــاه الآخر!.

ولهذا كان الرجلُ زوجاً للمرأة، وكانت المرأةُ زوجاً للرجل! كمــا قــال تعــالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٣٥]

وكم تمزقت الماديةُ الغربية عندما حاربَــتْ هــذا التــزاوجَ بــين الــزوجَيْن، وجعلــت علاقةَ الرجلِ بالمرأة "مشاعاً" قائماً على مجردِ التقــاءِ جســديهما لقــاءً عــابراً، لممارســةِ الجنــس و"قضاءِ الحاجة "!.

(٣٢)
آدم وحواء يستمتعان في الجنة

خلقَ اللهُ آدمَ في الجنة، ثم خَلَقَ له زوجَه حواء في الجنة، وأذِنَ اللهُ لهما أنْ يتجوّلا في الجنة، ويستمتعا فيها، ويأكُلا ما شاءا من طعامِها وخيراتِها، ولم ينْهَهُما إلاّ عن شجرةٍ واحدة.

قال تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩]

قال الله لآدم: يا آدم: اسكُنْ أنْتَ وزوجُكَ الجنة. وهذا معناهُ أنّ آدمَ عرفَ أنّ هذه المخلوقةَ الأنثى "حَوّاء" زوجٌ له، ولم يكنْ في الجنة أنثى غيرُها، لأنه كان في الجنةِ الملائكة، وهؤلاء لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة. وفيها إبليس وهو من الجن.

والمرادُ بالجنة في قوله: "اسكن أنت وزوجك الجنة": الجنةُ دارُ النعيم، التي أعَدّها اللهُ للمؤمنين المتّقين. والراجحُ أنّ المشاهدَ الأُولى من قصةِ آدمَ وحواءَ وإبليسَ كانت في الجنةِ دار النعيم.

لأنّ غالبَ استعمال كلمة "الجنة" في القرآن بهذا المعنى، ويُرادُ بها الجنةُ المباركةُ العظيمة، التي خَلَقَها اللهُ قبل آدم وإبليس، وجعلها دار النعيم، التي هي مأوى للمتقين الصالحين.

وذهبَ بعضُهم إلى أنّ المرادَ بالجنة في قصة آدم "اسكن أنت وزوجك الجنة" جنةٌ على الأرض، تتمثلُ في مكانٍ مرتفع، على رأسِ جبل عال، وهذا المكانُ فيه أشجارٌ وثمار، وأنهارٌ وعيون، وبيوتٌ وقصور، وهو ممتدٌ فسيح، سميَ "الجنة" لهذا السبب!.

ولَسنا مع هؤلاءِ في تأويلِهم واجتهادهم، لأنه لا يتفقُ مع ظاهرِ التعبيرِ القرآنيِّ عن إسكانِ آدم وزوجه الجنة، وهذا هو الأصلُ في معنى الجنةِ في القرآن، ثم ليس هناك مانعٌ عقلاً أو شرعاً من حملِ تلك الجنةِ على دار النعيم.

وهذا هو الأَولى في فهمِ معنى "الجنة"، وذلك ليعيشَ فيها آدمُ وحواءُ الفترةَ الأولى من حياتِهما، ليغرسا في "لا شعورِ" ذرِّيتِهما – الذين سيعيشون على الأرض– الشوقَ إلى الجنة، والرغبةَ فيها، لسبقِ الإقامة فيها من قِبلِ أبويهِم.

ولعلّ هذا ما تمناهُ الإمامُ ابن القيم رحمه الله بقوله:

فحَيَّ على جَنات عدنٍ فإنّها   مَنازِلُنا الأُولى وفيها المُخيَّمُ.

وقد أذنَ اللهُ لآدمَ وحواءَ بالأكلِ من الجنةِ حيث شاءا، إلاّ من شجرة معينة: "وكلا منها رغداً حيث شئتما".

والأكْلُ الرَّغَدُ هو الأكْلُ الواسعُ الهنِيءُ الرغيد، الذي لا يعْتَريه تَعَبٌ أو ألَم، ولا ينتجُ عنه خَطَرٌ أو أذى، وهو يقومُ عى الاستمتاعِ والتلذذِ والانبساط!.

(٣٣)
النهي عن الاقتراب من الشجرة المحرمة

لما أذنَ اللهُ لآدمَ وحوّاءَ بالأكلِ من حيثُ أرادا من الجَنّة لم يمنَعْهما إلاّ من شجرةٍ واحدةٍ معينة قال تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٩]

كانت شجرةً واحدة، من أشجارِ الجنةِ العديدةِ الكثيرة، تثمرُ ثمراً خاصاً شهيّاً مرغوباً، وكان آدمُ وحواءُ يعرفانها، ولذلك لما نهاهُما اللهُ عن الاقتراب منها أشار لها باسمِ الإشارة "هذه"، الذي يُشارُ به للقريب، وهذا يَدُلُّ على قُرْب الشجرةِ منهما قُرْباً مادياً، وقُرْباً علميّاً معنويّاً.

وأل التعريف في "الشجرةِ"، للعهد الذهني، لأنها شجرة معروفة عندهما، وكما كان آدم وحواء يعرفان تلك الشجرة فإنّ الملائكةَ كانوا يعرفونها، كما أن إبليس كان يعرفُها.

الشجرة المحرمة مبهمة لنا:

أما نحن فإننا لم نعرفها!! لأنها مبهمةٌ في القرآن، حيثُ اكتفى القرآنُ بمجردِ الإشارةِ لها: "ولا تقربا هذه الشجرة". وهذه الإشارةُ لا تُزيلُ إبهامها عندنا، ولم يردْ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُزيلُ إبْهامها، ولم يحاول الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم معرفةَ تلك الشجرة، وسؤالَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عنها.

ولكنّ كثيراً من المفسرين والإخباريّين لم يرْضوا بإبهامِ الشجرةِ في القرآن، ولم يَسَعْهم ما وسعَ الصحابةَ في عدم السؤالِ عنها، فحاولوا معرفَتها وتحديدَها، وأوردوا كلاماً رجماً بالغيب ليس عليه دليل.

ولا يعنينا تَحديدُ فصيلة تلك الشجرة، من أنها تُفاحٌ أو قمحٌ أو تينٌ أو غيرُ ذلك، فلا يضرُّنا الجهلُ بها.

والعجيبُ أنّ أحبارَ اليهودِ الكفارَ عندما ألّفوا أسفارَ العهدِ القديم، ونَسَبوها للّه كَذِباً وافتراءً، زَعَموا أنّ الشجرة التي نُهيَ عنها آدمُ شجرةٌ معنويةٌ، وليستْ حقيقيةً مادية.

زعموا أنها شجرةُ المعرفة، وزَعَموا مرةً ثانيةً أنها شجرةُ الخلود! وقالوا في أكاذيبهم ومزاعمهم: أكَلَ آدمُ من شجرةِ "المعرفة"، فصارَ عالماً عارفاً، ولما رآهُ "الربُّ" على ذلك المستوى من العلمِ خافَ منه على ملكهُ وسلطانِه، وقال للملائكة: انظُروا إلى هذا المخلوقِ

الذي خلَقتُه، لقد أكَلَ من شجرةِ المعرفة، وسيفوقُني في العلم، ويكـونُ خَطَـراً علينـا في الجنـة، ولا بد من التخلص منه، وعقابه بـالإنزالِ إلى الأرض، قبـلَ أن يهتـديَ إلى خصـائصِ "الـرّبّ" الأخرى، ويتصفَ بـها!!.

سبحانك ربي، هذا بهتانٌ كبير، وكفرٌ عريض، تعـالى الـرّبُ عـن مـا يقولُـه الأحبـارُ عنه من أباطيلَ في رواياتِ العهدِ القديم المحرّف!.

كلُّ ما نقولُه عن تلك الشجرة المحرّمَة: لقـد كانـتْ شـجرةً واحـدةً معينـة في الجنـة يعرفُها آدم وحواء، ويعرفانِ ثمرها، ولا يضُرنا نحنُ الجهـلُ بـها، لأنَّ القـرآنَ أبهَمَهـا، والمهـمُّ هو استخراجُ العبرةِ من الحادثة.

لماذا النهي عن الاقتراب من الشجرة؟:

لم ينه اللهُ آدمَ وحَواءَ عن مجردِ الأكْل من ثمارِ تلك الشجرة المحَرَّمَـة، إنمـا نهاهُمـا عـن ما هو أبلغ، وهو الاقترابُ منها، حيث قال: "ولا تقربا هذه الشجرة".

والنهيُ عن الاقترابِ من الشجرة أبلغُ مـن مجـردِ النـهي عـن الأكْـلِ منـها، لأنـهُ يتضمنُ النهيَ عن الأكل منها، أما النهيُ عن الأكلِ فإنه لا يتضمّنُ النهيَ عن الاقتراب.

إنهما إذا لم يقتربا من الشجرة، لن يأكلا منها من بابِ أولى. وهـذا معنـاهُ أنهمـا كانـا منهيّين عن شيئين: الاقتراب من الشجرة، والأكل منها.

وهذا هو المسمّى في الإسلام بسدّ الذرائع، أي تحريم كـلّ طريـق توصـل إلى الحـرام، فعندما حرّمَ الإسلامُ الزنا، سدّ الذرائع إليه، وحرّم كـلّ طريـق توصِـلُ إليـه، فَحَـرّمَ النظـرةَ والمصافحةَ والقُبْلَة والاختلاطَ والتبرج، وغيرَ ذلك.

ولما نهى اللهُ آدمَ وحواءَ عن الاقترابِ من الشجرةِ أخبرهما أنهمـا إنْ فَعَـلا ذلـك كانـا من الظالمين: "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين".

والظلمُ هو تجاوُزُ الحَدّ وتَعّدي المبـاحِ إلى الحـرام، وعاقبـةُ هـذا الظلـمِ تَعـودُ علـى صاحبه، حيث يدفعُ ثمنَ ظلمه وتجاوزه.

حكمة نهيهما عن الشجرة المحرمة:

أشكلَ فهمُ نـهيِ الله لهما عـن الأكْـلِ مـن الشـجرةِ علـى بعـضِ البـاحثين مـن المسلمين، واعتبَروا هذا التكليفَ بالانتهاءِ عن الشجرةِ دليلاً علـى أنّ الحادثـةَ لم تكـنْ في الجنـةِ دار النعيم، وإنما كانتْ في بستانٍ جميلٍ عالٍ، على قمـة جَبـلٍ في الأرْض، لأنّ الجنـةَ ليسـتْ دارَ تكليف، إنما هي دارُ جزاء وثوابٍ ونعيم!.

ولا نَرى تَعارُضاً بين ذلك التكليف لآدمَ وحَوّاء، وبين كونِ الجنةِ دارَ جزاءٍ وثواب.

فالأصلُ في الجنةِ أنْ تكونَ دارَ ثواب! هذا صحيح! لكن متى تكونُ كذلك؟ تكونُ بعدَ البعثِ والحسابِ والجزاءِ يومَ القيامة. لكنَّ هذا لا يَمنعُ أن يُكَلَّفَ آدمُ وحواء فيها تكليفاً خاصاً، في بداية حياة البشرية.

ولو قُلنا: إنّ الله بعدَ أن يُدخلَ المؤمنين الجنةَ يومَ القيامة يُكلفُهم فيها بالعبادة، ويُعاقبُ الله المقصِّرين بالعذاب في النار، لصَحَّ اعتراضُهم قائلين: الجنةُ دارُ ثواب وجزاء وليستْ دار تكليف، ومَنْ أدخلَه فيها لا يعاقبهُ بالخروجِ منها!.

أما تكليفُ آدم وحواءَ وهما في الجنة بذلك التكليف، فهذه حالة خاصةٌ، لحكمةٍ خاصة أرادَها الله سبحانه!.

وقد يتساءَل متسائل: لماذا كلّفهما الله بالنهيِ عن بالاقترابِ من تلك الشجرة؟ فنقول: لعلّ الحكمة من ذلك التكليف هي تقويةُ إرادةِ آدمَ وحواء، وتنميةُ معاني التكليف والالتزام عندهما، وتَدريبُهما على ذلك وهما في الجنة، ليحسنا النظرَ إليه، ويتمرنا على التفاعل معه، لأنّ الله سينزلُهما بعد ذلك إلى الأرض، وستقومُ حياتُهما الدنيوية على التكليفِ والأمرِ والنهي.

وسيكونُ هذا التكليف لهما في الجنة تمهيداً للتكاليف الشرعيةِ لذريتِهما من بعدِهما، فكما كُلِّف الأبوان في الجنة هذا التكليف وتدربا عليه، كذلك تُكلّفُ ذريتُهما من بعدهما هذا التكليف، وتتدربُ عليه، وتتكيَّفُ معه.. والله أعلم.

(٣٤)
تحذير آدم وحواء من عداوة إبليس

أذِنَ اللهُ لآدمَ وحوّاءَ أنْ يأكلا من أشجارِ الجنة حيثُ شاءا، ونهاهُما عن الاقتراب من شجرةٍ واحدة فقط.

وحتى لا يَقعا في المحذور، حَذّرهما اللهُ من الشيطانِ "إبليس"، وأمَرَهما بالانتباه له. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه:١١٦-١١٩]

خاطَب اللهُ آدمَ في الجنةِ وكَلّمه وحذّره، وهذا التحذيرُ له ولزوجِه حواء. وسمعَ آدمُ في الجنة كلامَ اللهِ وفَهِمَه.

قال اللهُ له: يا آدم: هذا إبليس عَدُوٌّ لك ولزوجك.

لماذا عادى إبليس آدم وحواء؟:

إبليسُ عدو لآدم، لأن الله فضله عليه، فكرهَه وأبغضَه، وعاداه وحَقَدَ عليه، ولم يَصطدم آدمُ به، ولم يُخطئ معه، لكنها عداوةُ الحاقدِ المبغض، المتكبر المتعالي، وقد قطع إبليس عى نفسه عهداً أمامَ اللهِ بإغواء بني آدم، بل سيسعى إلى محاولةِ إغوائهِ هو، وإيقاعِه في المعصية ليغضبَ اللهُ عليه مثْلَه.

آدمُ مثالٌ للمؤمنِ بالله الذاكرِ له، الطيبِ الهادي. وإبليسُ تجسَّدَ فيه الشَّرُّ والكيدُ والمكرُ واللؤمُ والحقدُ والعداوة.

عادى إبليسُ آدمَ، لا لذنبٍ ارتكبَه الأخيرُ ضدّه، بل لأنه طيبٌ صالح، ولأنه يُذَكِّرُ إبليسَ بالمعاني الفاضلةِ الخَيِّرة، التي ماتَتْ في نفسِ إبليس، منذُ أنْ رفضَ السجود.!

وعادى إبليسُ زوجَه حوّاءَ أيضاً، مع أنّ حواءَ لم تُخطئْ معه مثْلَ آدم، لكنّه عاداها وأبغضَها لأنها مؤمنةٌ بالله، ذاكرةٌ له.

إن إبليسَ يُعادي كلَّ مؤمنٍ طيب، ولهذا اتخذَ أول شخصينِ من البشر عدوَّيْن، ثم عادى الصالحين والصالحاتِ من ذريةِ آدم، بدونِ أنْ يُخطِئوا معه!!.

وإذا كانَ إبليس قد عادى آدمَ وحواء، وعادى الصالحين والصالحات من ذريتهما، فإنّ حزبَ الشيطانِ الخاسرين الكافرين يُعادونَ هؤلاء المؤمنين، وكم يَكتوي

المؤمنون بنارِ عداوةِ هؤلاء الشياطينِ، وهم لم يَحْتَكّوا بهم ولم يتعاملوا معهم! وجريمةُ هؤلاء المؤمنين عند الشياطين أنهم مؤمنون، كما كانتْ جريمةُ آدمَ وحواءَ عند إبليسَ أنهما مؤمنان! والمؤمنُ يُوَطِّنُ نفْسَه على عداوةِ الكافرينَ له، ولا يتَوقَّعُ أنْ تزولَ من أعماق قلوبهم!.

إبليس يريد إخراجهما من الجنة:

لما أخبرَ اللهُ آدمَ بعداوةِ إبليسَ له ولزوجِه ذَكَرَ له هدفَ إبليسَ منه، ليكونَ على بينةٍ من أمْرِه، وليفوتَ على إبليسَ تحقيقَ هدفِه. وهذا في قوله تعالى: " فلا يخرجنكما من الجنة ".

إنَّ هدفَ إبليسَ الخبيثَ هو إخراجُ آدمَ وحواءَ من الجنة، ليكونا مثلَه. واللهُ قد حَكم على إبليسَ بالإخراجِ من الجنةِ لاستكبارِه وكفره، وهو في الجنةِ يَنتظرُ تنفيذَ حُكْمِ الطرد والإخراجِ والإبعاد. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]

ولا يعلمُ إبليسُ متى سيخرجُه اللهُ من الجنة، لأنَّ هذا لا يعلمهُ إلاّ الله، وهداهُ خبثُه ولؤْمُه إلى أنْ يستغلَّ هذه الفترةَ بمحاولةِ إيقاع آدمَ وحواءَ في الذنب، ليغضبَ اللهُ عليهما مثْله، ويُخرجهما من الجنةِ مثلَه، ويكونا مثْلَه محرومَيْن من ذلك النعيم. وكما يقولُ المثل: عَلَيَّ وعلى أعدائي!!!.

وإنَّ اللهَ العليمَ الحكيمَ يعلمُ ما يفكِّرُ فيه إبليس وما يُخططُ له، ولذلك حَذَّرَ آدمَ من كيدِه، وأخبرَه أن هدفَه هو أنْ يُخرِجهما من الجنة، وعليهما أنْ ينتبها له.

وإذا رأى العدوُّ الحاقدُ المؤمنَ في نعمةٍ وتوفيقٍ من الله، ازدادَ عليه حقداً، وخططَ لحرمانِه من ذلك، ليوقِعَه في الشقاءِ والبؤسِ والتعاسة، فليس هذا هدفَ إبليسَ وحْدَهُ، لكنّه هدفُ جنوده من شياطينِ الإنسِ والجنّ ضدّ المؤمنين!.

وَذكّرَ اللهُ آدمَ بحالهِ في الجنة، وما هو فيه من الخيرِ والرفاهِ واليُسْر، فإن استجابَ لوساوسِ الشيطانِ خَسِر ذلك، وحَل به الشقاءُ والضيقُ والعُسْر، قال له: "فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى".

الشقاءُ والتّعب صفةٌ لطبيعة الحياةِ الدنيا. والرفاهُ والراحةُ والأمانُ صفةٌ لطبيعةِ الجنة، فآدمُ في الجنةِ آمنٌ راغد، يأكُلُ هو وزوجُه من حيثُ شاءا منها، وتُحقَّقُ لهما جميعُ حاجاتهما، وهما مُرْتاحان مُرَفَّهان.

كل منهما في الجنة لا يجوعُ ولا يَعْرى، ولا يظمأ ويعطشُ ويطلبُ الماءَ والشراب، ولا يَضحى ويتعبُ وقتَ الضُّحى، ويتعرضُ لأشعةِ الشمس وهو يَكدُّ ويَعملُ.. فليس في الجنة شمسٌ حارة، ولا عملٌ شاقّ، ولا تَعَبٌ وعَرَق، ولا جوعٌ وظمأ.

أما إذا أخرجَهما إبليسُ من الجنة، فسوفَ يُعانيانِ من شظَفِ الحياة وتعبها ومشَقّتها، وسوفَ يَجوعانِ ويَعْرَيان، ويَظْمآن ويَتْعَبان! فهذه طبيعةُ الحياة الدنيا.

فعليهما أنْ يَحْرِصا على البقاء في ذلك النعيمِ الآمن، ويَحذرا إبليسَ الذي يُريدُ حرمانَهما منه!.

(٣٥)
وسوسة إبليس لكشف السوءات

علمَ إبليسُ أنّ اللهَ نهى آدمَ وحوّاءَ عن الاقترابِ من الشجرة، وفَكّر في وسيلةٍ شيطانيةٍ يتمكّنَ فيها من إغوائهما وإيقاعهما في المعصية.

وكانَ يعلمُ من قبلُ نقطةَ ضعفِ آدم، حيثُ كانَ يطيفُ به ويحومُ حولَه، وهو تمثالٌ ممدّدٌ في الجنةِ قبل نفخ الروح فيه، حيث عرفَ أنه أجوفُ وأنه لا يتمالَك، واحتفظَ اللعينُ بهذه المعلومةِ لحينِ حاجته إليها!.

والآنَ عرفَ أنه جاءَ وقتُها!.

لقد نهى الله آدم وحَوّاءَ عن الاقترابِ من الشجرة، وهو أوَّلُ تكليفٍ يكلّفهما اللهُ به، وإنَ نجح إبليس في حملِهما على الأكْلِ من الشجرة، حقّقَ هدفَه وأخرجَهما من الجنة.

وبما أنّ آدمَ – وحواءَ مثلَه كذلك – لا يتمالَك، فلْيدخلْ له من هذا الباب، فهذه نقطةُ الضعف التي ستوقعُه في المحذور!.

توجَّهَ إبليسُ لآدمَ وحَوّاء معاً لإسقاطِهما.

دلالة فعل "وسوس":

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠]

أطلقَ عليه هنا وصفَه وليس اسْمَه، لأنَّ اسمه "إبليس" ووَصفَه شيطان، وهنا قالَ الله "فوسوس لهما الشيطان"، لأنَّ الوسوسةَ يناسبُها التعبيرُ بالوصف، فهيَ من عملِ الشيطان، ولذلك عَدلَ عن اسمِه إلى وصفِه.

والوسوسةُ إيحاء من الشيطان لهما، وحديثٌ متواصلٌ منه معهما، وقد يكونُ هذا الحديثُ ظاهراً علنيّاً، وقد يكونُ شعوراً باطناً خَفيّاً.

وفعلُ "وسْوَسَ" يوحي باستمرارِ حديثِ إبليسَ معهما، وإيحاءاته العلنيةِ والخفية. وهذا الاستمرارُ منه يدلُّ على أنهما لم يستجيبا له من المرةِ الأولى أو الثانيةِ أو العاشرة!.

إنّ فعلَ "وسوس" يُشيرُ إلى أنّهما بقيا حذرَيْن منه، متذكّرَيْن عداوَته، وحافظا على هذا الوعيِ والانتباه فترة، واستجابا لتحذير اللهِ لهما منه.

كما أنّ هذا الفعلَ "وسوس" يشيرُ إلى الجهد الكبير الذي بَذَلَهُ إبليسُ في الوسوسة لهما وخداعهما، ومواجهتهما لوسوسته بالانتباه.

أراد الشيطان إبداء السوءات:

لماذا وسوس الشيطان لهما؟ أجابت الآية: "ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما".

اللامُ في "ليبدي" لامُ التعليل، والجملةُ بعدَها تُعللُ لوسوسةِ الشيطان، وتُبَيِّنُ هَدَفَه منها.

لقد سبقَ ذكْرُ هدفٍ أصليّ كبيرٍ للشيطان، وهو إخراجُهما من الجنة: "يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجِك، فلا يخرجنكما من الجنة".

وهنا تَذْكُرُ الآيةُ هدفه من الوسوسة: "فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاهما". ولا تَعارُضَ بين الآيتَيْن، فالهدفُ الأساسيُّ للشيطانِ هو إخراجُهما من الجنة، ومن وسائلهِ في تحقيق هذا الهدف الشيطانيّ كشفُ عوراهما وإبداءُ سوءاتهما، فإنه إنْ تمكّنَ من ذلك، وحقّقَ هذا الهدف الجزئيّ بالوسوسة، حقّقَ هدفه الكبير بإخراجِهما من الجنة، لأنهما بعصيانِهما تنكشفُ عوراتُهما، وبذلك يَغضبُ اللهُ عليهما فيخرجَهما من الجنة.!

ومعنى: "يُبْدِيَ" يُظْهِرَ ويكْشِف. وتَعَلّق الإبداءُ والإظهارُ بهما فقط: "ليبدي لهما".

ومعنى "ووري":" أُخفِيَ وسُتِرَ، وتَعَلّق الفعلُ بهما "ما ووري عنهما". و "ووري" فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول بواويْن اثنَين، والمعلومُ منه "وارى". وأصْلُ الجملة: وارى اللهُ عن آدمَ وحواءَ سوءاهما، وأخفاها وسَتَرَها عنهما. وأرادَ الشيطانُ أنْ يُظهرَ لهما تلك السوءاتِ المواراةَ عنهما.

و "سوءاتُهما" جمعُ سوءة، وهي العورة، التي يَسوءُ الرجلَ والمرأة كَشْفُها، ويَخْجَلان من إظهارِها، ويَحرِصانِ على سترِها وتغطيتها!.

وكونُ سوءاتِ آدم وحَوّاء ووريتْ عنهما يوحي بأنّ هذه مواراةٌ خاصة، أرادَ الشيطانُ إزالَتَها والقضاءَ عليها، وإبداءَ وإظهارَ تلك السوءاتِ لهما.

وإن لشبه الجملةِ "لهما"، وشبهِ الجملة "عنهما" دلالةً خاصةً في هذا الموضوع، نُرجئُ الحديث عنها لحين وصولنا إلى بُدُوِّ سوءاتِهما بعدما أكلا من الشجرة.. بعونِ الله.

هدف الشيطان في تعرية الإنسان:

إن هدف الشيطانِ الخبيث في إظهار السوءاتِ المواراة، وكشف العوراتِ المغطاة، يدلُّنا على رسالتِه الإباحيةِ في الحياة قوله تعالى: "فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاهما".

وبعدَما حملَهما على الأكْلِ من الشجرة، وبَدَتْ سوءاتُهما، حَذّرَ الله بني آدم من هذه الرسالة الشيطانيةِ الإباحية، فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧]

قامَ الشيطانُ من خلالِ وسوسته لآدمَ وحَوّاءَ بنزع لباسهما عنهما، وذلك ليريهما سوءاهما.

إنّ رسالةَ الشيطانِ – وجنودهِ من شياطين الإنس والجن – هي "تعريةُ" بني آدمَ من الرجال والنساء، ونَزْعُ ملابسهِم عنهم، وكشفُ عوراتِهم وسوءاتِهم!

وهذه التعريةُ لنشْرِ الفواحشِ بينهم، واستباحةِ أعراضهم، ومحاربةِ أخلاقِهم وفضائلهم!.

جنودُ إبليسَ من اليهود الكافرين في هذا الزمانِ هم الذينَ قاموا بتعريةِ النساء، ونَشْرِ الأزياء الفاضحةِ العارية بينهن، فهُنَّ إمّا أن يلبسْنَ ملابسَ لا تكادُ تسترُ من جسم المرأة شيئاً، وإمّا أنْ يَتَعَرينَ من ملابسهنَّ تماماً، على الشواطئ، وفي النوادي ومراكزِ التّعري. وماذا ينتظرُ من مجتمعات تَعَرّى فيها الرجالُ والنساء من الملابسِ والأخلاقِ والقيمِ والفضائل، واستَخْدموا التكنولوجيا الحديثةَ في تجميل وتزيينِ وتسويق هذا التّعَري للرجالِ والنساء، مُمَثّلاً في الصحفِ والمجلات والفضائياتِ والأفلامِ والإنترنت... ودعوةِ الناس ليعيشوا في بيوهم كما يُشاهدون في أفلامهم وفضائياتهم.

هذه الرسالةُ الشيطانيةُ العاريةُ الإباحيةُ أخبرَنا الله عنها منذُ أن كانَ أبونا وأمُّنا في الجنة: "ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاهما".

(٣٦)
زين لهما التملك والخلود

عندما وسوسَ إبليسُ لآدمَ وحواء ليبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوءاتِهما، ماذا قالَ لهما؟.

أظهرَ لهما أنه حريصٌ عليهما، ويُريدُ الخيرَ لهما، وأتهمَ اللهَ سبحانَه بأنه لا يُريدُ الخيرَ لهما، وإنما يُريدُ بهما الشرّ.

قال لآدمَ: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠ ﴾ [طه:١٢٠]

وقال لآدمَ وحَوّاء معاً: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠ ﴾ [الأعراف:٢٠]

إن نَهيَ الله لكما عن الأكلِ من الشجرةِ ليس في مصلحتِكما، ومصلحتُكما في عكسِ نَهيِ اللهِ، إنها تتحقّقُ في أكلكُما من الشجرة!.

إنه في هذه الوسوسةِ الشيطانيةِ "يتهمُ" اللهَ سبحانه في تكليفِه ونَهْيِه، ويُشكّكُ في صواب هذا النهيِ وصحتِه، ويُرِي آدمَ وحَوّاءَ أنّ اللهَ ضدَّهما ويَكرهُهما، ويمنعُهما من كلّ ما فيهِ الخيرُ لهما..

اللهُ يقولُ لهما: "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين".

وإبليسُ يقولُ لهما: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين.."!

لقد بلغَ من مكرِ إبليسَ وكيدِه أنْ "يُكَذِّبَ" اللهَ سبحانه في حكمِه، وأنْ يُخَطِّئَه في تكليفِه، وأنْ يُبين أنّ ذلك عكسُ المصلحة.

بهذه الوساوسِ الشيطانيةِ يوسوسُ لأتباعِه من بني آدم، ويُكَرِّهُهم في أحكام الله وتشريعات دينه، ويُشكّكهُم في حكمةِ اللهِ منها، ويُريهم أنّ اللهَ عدوٌّ لهم، يُريدُ أنْ يَحْرِمَهُم من الخير، وأنْ يوقعهم في العُسْرِ والحَرَجِ والخسران.

يقولُ لهم: حَرَّمَ اللهُ عليكم الرّبا لأنه يريدُ أنْ يحرمَكم من الحصولِ على المال، ومصلحتُكم تتحققُ في أكلِ الربا وزيادة المال! وحَرّمَ اللهُ عليكم الزنا لأنه يُريدُ أن يحرمكم من الاستمتاع بالحياة، ويُضَيّقَ على حريتِكم الشخصية، ولا تستمتعونَ بالحياة حقّاً إلاّ بأنْ تفْعلوا ما تشاءون، ولا تُقَيّدوا أنفسكم بقُيودِ العيبِ والأدبِ والحلالِ والحرام!.

هكذا كانت بدايةُ كيدِ إبليسَ ومكرِه، عندما اتّهمَ اللهَ، وشكّكَ آدم وحواءَ في حكمه وتكليفه.

خاطب إبليس غريزتين في آدم وحواء:

إبليس يعرفُ نقطة ضعفِ الإنسان، وهي أنه "خَلقٌ لا يتمالَك"، فدخَلَ إلى آدم وحَوّاء من هذا الباب، واستغلَّ فيهما هذه النقطة!. أراهُما أنّ مصلحتَهما تتحقّق بالأكلِ من الشجرةِ المحَرَّمة.

خاطب فيهما غريزتين: حُبّ التملك، وحُبّ الخلود. لأنهما غريزتان أساسيّتان عميقَتان في النفسِ الإنسانية: كلُّ نفسٍ تحبُّ أنْ تتملّكَ، وتزيد ما تتملكُه.. وكلُّ نفسٍ تحبُّ الخلود، وتعملُ له، وتسعى إليه.

أتى إبليسُ لآدم وقال له: "يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" أي: يا آدمُ: أنا حريصٌ عليك، وأريدُ مصلحتك وتقديمَ النُصحِ والخير لك، فدعني أدُلّكَ وأرشدك إلى شجرةٍ من أشجار الجنة، إن أكلتَ من ثمرها حصلت على الخيرِ كلّه، لأنك بذلك تنالُ أمريْن عظيمَيْن، أنت تحبُّهما: أن تكونَ مخلداً، تعيشُ عَيْشاً مُؤَبَّداً، فلا تَموت. ثم أن تكون ملِكاً، تملكُ ملْكاً عريضاً واسعاً كثيراً، لا يَبلى ولا يزول، ولا ينقضي ولا يفنى!.

وهذه الشجرة التي تحققُ لك الخيرَ، هي الشجرةُ التي نَهاكَ الله عن الأكلِ منها! وبذلك تَعرفُ يا آدمُ أنّ اللهَ لم يُرِدْ مصلحتَك عندما نهاكَ عن الأكل منها، وأنا الناصحُ لك، الحريصُ على مصلحتِك، فاسمع نصيحتي وكلْ من الشجرة.

وقالَ إبليسُ لآدمَ وحواءَ مجتمعَيْن: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين".

إنّ اللهَ لا يُريدُ أن تكونا "اثنين" من الملائكة، في منزلةٍ عاليةٍ من الملائكية، التي عليها باقي الملائكة، الذين لا يأكلونَ ولا يَشْرَبون، ويُريدُ أنْ تستمرّا بشرين عاديّيْن، تحتاجان الطعامَ والشراب! ولذلك نهاكما عن الأكلِ من الشجرة!.

والله لا يريدُ أن تكونا من الخالدين، المخلّدين في حياتِهم الذين يعيشونَ أبداً ولا يَموتون، بل يريدُ أن تموتا بعد حين، ولذلك نهاكما عن الأكلِ من الشجرة.

فإنْ أردتُما أنْ تكونا مَلَكَينْ من الملائكة، لا يَحتاجان إلى طعام وشراب، وأن تكونا خالدين في حياتكما، فعليكُما بالأكلِ من الشجرة!.

مدخل الشيطان للنفوس:

من هذا البابِ يدخلُ الشيطانُ إلى نفوسِ بني آدم، لأنه يعلمُ أن معظم الناس لا "يتمالكون" أمام الرغبةِ في التملك، والرغبةِ في الخلود. فالرغبةُ الغريزيةُ في الحصول على أكبرِ مقدار ممكنٍ من التملُّك تجعلُ الإنسان مستجيباً لوساوسِ الشيطان، فيتملكُ الممتلكاتِ من أيّ مصدر، سواءٌ كان حلالاً أو حراماً، والرغبةُ الغريزية في الخلود، تجعله يحرصُ على حياتِه، ولا يَبذلُها في سبيلِ الله، ويتمسكُ في الدنيا وينسى الآخرة. وكان إبليسُ كاذباً في تزيين التملك والخلود لآدمَ وحواء، وهَدَفُه هو إسقاطُهما.

فقد شاء اللهُ الحكيمُ أنْ لا يجعلَ لبشرٍ الخلودَ في هذه الدنيا، وجعلَ لكلّ إنسانٍ أجلاً محدداً، لا بُدّ أنْ يَموتَ عندما يستوفيه، والدنيا نفسُها زائلة، وسيموتُ آدمُ وحواء عند حلولِ أجَلَيْهِما، سواءٌ أكلا من الشجرةِ أم لم يأكُلا منها!.

ولم يجعل اللهُ الحكيمُ لأحدٍ من المخلوقين مُلْكاً لا يَبْلى، ومهما ملكَ الإنسانُ من ملك فلا بُدّ أن يبلى ويفنى ويزول. والمالكُ الحقيقيُّ لكلّ ما في الكونِ هو اللهُ سبحانه! وماذا تقولُ في مُلْك يتركهُ صاحبُه خلفَه عندما يموت؟؟.

(٣٧)
أقسم لهما بالله كاذباً

لم يُصدقْ آدمُ وحواءُ إبليسَ في تبريره لهما الأكلَ من الشجرة، لأنهما مؤمنانِ بالله، يَعلمانِ أنّ اللهَ حكيمٌ في نهيهما عن الأكل من الشجرة، وأنّ مصلَحتهما تتحققُ بالالتزامِ بحكم اللهِ وليس بمخالفته.

وبقيَ آدمُ وحواءُ يقظين واعيَين، حذرَيْن من إبليس ووساوسه... وإبليسُ حريصٌ على إغوائِهما، ولم تنفعْ وساوسُه معهما حتى الآن! ماذا يفعل؟. لجأ إلى وسيلة شيطانية ماكرة، لا يهتدي لها إلاّ هو، ولا تخطُر إلاّ على باله هو! فلم يبْقَ أمامه إلاَ أن يُقسمَ لهما بالله، أنه صادقٌ ناصحٌ أمين!.

قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف:٢١]

ومعنى " قاسمهما ": أقسم لهما اليمين، وحلفَ لهما بالله قائلاً: أقسمُ لكما بالله أنني صادقٌ ناصحٌ لكما! وأنني أريدُ الخير لكما، وأنني أدلكما على سبيلٍ تحققانِ بها التملكَ والخلود، وأنّ مصلحتَكما في الأكل من الشجرةَ!!.

وهذه هي أولُ يمينٍ كاذبةٍ في تاريخِ البشرية، وكانتْ في الجنة، قبلَ حياةِ آدمَ وحواءَ على الأرض، وهذه اليمينُ الكاذبةُ صدَرتْ عن إبليس، فهو أوّلُ مَنْ حلفَ بالله كاذباً.

ولعلّها أولُ يمينٍ سمعَها آدمُ وحواءُ في الجنة، ولعلّهما فوجئا باليمينِ من إبليس، فنسيا عهْدَ اللهِ لهما بعدمِ الأكلِ من الشجرة.

كانا حتى حَلْفهِ اليمينَ حذرَيْن منه، منتبهَيْن له، لا يستجيبان لوساوسِه، ولا يَسمعانِ تبريراته! أما بعدَ حلْفه اليمينَ فقد تغيَّرَ الأمر!.

يبدو أنهما لم يتوقّعا أنْ يَصلَ الكيدُ والمكرُ بإبليس إلى أنْ يحلفَ لهما كاذباً، وما كانا يتصوّران أنْ يُقْدِمَ على ذلك... قد يُوسوس، وقد يُزيَن، وقد يُبرر، وقد يَكذِب... أما أنْ يَحلفَ يميناً بالله وهو كاذب، فيبدو أنهما لم يتوقعا منه ذلك.

ولذلك نَسِيا – في هذه اللحظة – عهدَ اللهِ لهما بعدمِ الأكلِ من الشجرة، وأكَلا منها ناسيَيْن.

نسيا عهد الله بسبب يمين إبليس:

إن قوله تعالى: "وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين" تعليلٌ لسببِ أكلهما من الشجرة، فقد أكَلا منها متأثّريْن بيمين إبليس!

وكأنهما قالا: إبليسُ عدوٌّ لنا، وكاذبٌ فيما يقولُه لنا ويدعوننا إليه. ولكنّه أقسمَ باللهِ الآن، فقد يكونُ صادقاً هذه المرّة، لأنه لو لم يكنْ صادقاً لما أقسمَ اليمين!.

إذنْ نَسيا عهدَ الله لهما لما سَمعا اليمين، فأكَلا من الشجرةِ ناسيَيْن.

وإنّ "النسيانَ" صفةٌ ملازمةٌ للإنسان، ومهما حاولَ إحسانَ التذكُّر وعدم النسيان فسيعجز عن ذلك.. ولا بد لكل إنسان أن ينسى، ولا يؤاخذ الله الإنسان على النسيان.

ولآدمَ وحَواءَ عُذْرٌ في أنْ يَنْسيا، لكنّ الجريمةَ هي ما أقدمَ عليه إبليس، حيث تَجرأ على الحلفِ باللهِ كاذباً، وهذا دليلُ شدةِ كيدهِ ومكرهِ ولؤمه، كما أنه دليل على كفره بالله، وعدمِ تقديرهِ له.

إن الأصلَ أنْ لا يَحلفَ الإنسانُ بالله، إلاّ في حالاتٍ استثنائية يضطرُّ إليها، وعندما يحلفُ باللهِ لا بُدّ أنْ يستحضرَ عظمةَ الله، وما يستوجبُهُ ذلك من تقديرِهِ حَقَّ قدره، فلا يَحلفُ باللهِ إلاّ وهو صادق.

فإذا حَلَفَ الإنسانُ باللهِ كاذباً، دَلَّ هذا على عدمِ تعظيم الحالف لله، وعدمِ خوفه منه، وهذا دَلَّ على خُلُوِّ قلبه من الإيمانِ الحي الذي يَحجُزهُ عن ذلك.

وإبليسُ عندما دفعَه كيدُه ومكرهُ إلى الحلفِ باللهِ كاذباً كان متحققاً بكلّ الشرورِ التي دفَعته إلى ذلك، وكان معلماً لأتباعهِ من الشياطين، الذين يَستخدمونَ الأيمانَ الكاذبةَ في إغواء الآخرين والتلبيسِ عليهم.

وعلقت الآياتُ على حلفِ إبليسَ لهما كاذباً بقولها: "فدلاهما بغرور". ومعنى "دلاهما" أنزلَهما، تقول: دَلّيْتُ الدَّلْوَ في البئر. إذا أنزلْته فيه بالحبل، وكان الإنزالُ بالتدريج.

إبليسُ دلّى آدم وحوّاء، بعدَ يمينِه الكاذب، حيثُ أكَلا من الشجرة، وبذلك أهبطَهما وأنزلَهما عن المرتبةِ العالية التي كانا فيها، إلى مرتبةٍ أدنى، حيثُ أُنْزِلا إلى الأرض.

والباءُ في قوله: "بغرور": باءُ السببية. أيْ: دلاّهما وأنزلهما وأهبطَهما بسببِ غروره لهما، والغرورُ هو الخداع.

غَرَّهما وخدَعَهما عندما أقسمَ لهما بالله، فانْخَدعا بيمينه الكاذب، وأكَلا من الشجرةِ ناسيَيْن، فهو السببُ في ما حصلَ لهما.

(٣٨)
السوءات التي بدت لهما

تأثر آدمُ وحواءَ بيمينِ إبليس، فأكلا من الشجرةِ ناسيَيْن.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢]

لم تُفصلْ لنا الآياتُ أكلَهما من الشجرة، واكتفتْ بالإشارةِ المجملةِ للمخالفة، والمسارعةِ بذكْرِ ما نَتَجَ لهما عن أكلِهما من الشجرة، وهو بُدُوُّ سوءاتِهما. ولم تُفَصلْ ذلك أيضاً أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلينا الاكتفاءُ في ذلك بما وردَ في القرآن.

وقد تكلمتْ أساطيرُ العهدِ القديم عن تفاصيل الأكْلِ من الشجرةِ، وتناقَلَها الإخباريّون عنهم، ولا نَدري من الذي عَرَّفَهم على تلك التفاصيل!.

زَعموا أن إبليسَ وسوسَ لآدم، فبقي حَذراً منه، ولم يستجبْ له، وزعموا أنّ إبليس توجّه إلى حَوّاء ووسوسَ لها فاستجابَتْ له، واتفقَتْ معه على إغواءِ آدم، وأنّ الشجرةَ المحرمَةَ كانت شجرة تفاح، فأمسكَتْ بحبةِ تفاحٍ وقدَّمَتها لآدم بدلالٍ وإغراء، فتناولَهَا منها وأكلَها! فلولا حواءُ لما أكَل آدمُ من الشجرة، وحَبَّةُ التفاحِ هي عنوانُ الغواية!.

هذه التفاصيلُ المذكورةُ في أسفار العهدِ القديم موقفُنا منها هو التَوَقُّف، وعدمُ التصديقِ أو التكذيب، وعدمُ الاعتمادِ لها.

والإشارةُ القرآنيةُ السريعةُ للأكْل من الشجرة مقصودَة، لأنّ الأكل منها كان مخالَفَة، وكانَ لحظَة ضعْف، نتج عنها التوبةُ والاستغفار، والقرآنُ لا يتوقّفُ طويلاً عند الأخطاء، ولا يُبرزُ لحظاتِ الضعف، ولا يُفلسفُها ويَكبِّرُها، حتى لا يتأثر الإنسانُ بها، بسببِ إطالةِ الوقوفِ عندها، وهذه حكمةٌ قرآنيةٌ تربويةٌ هادفة!

وهذا بعكسِ الرواةِ والقُصّاص والفَنّانين، الذين يُطيلون الوُقوف عند الأخطاء، ويُزيِّنون لحظات الضَّعفِ والغواية، ويَتحَدثون عنها بإسهاب، لتستقر في أذهان القُراء، ويتأثّروا بها، ويَفْعَلوا مثْلَها!.

بدت السوءات بمجرد الأكل من الشجرة:

بمجردِ ما ذاقا الشجرةَ المحرَّمة بَدَتْ لهما سَوْءاتُهما. ولما شاهدا السوءات شَعَرا بالخجلِ، وشَرعَا بقطْعِ أوراقٍ عريضةٍ من شجرة، وإلصاقِها على جسمَيهما، ليسترا تلك السوءات: "فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاهما".

"لَمّا" ظرفٌ للماضي يتضمنُ معنى الشرط. و"ذاقا الشجرة " فِعلُ الشرط، و"بَدَتْ لهما سوءاتُهما": جوابُ الشرط. والتقدير: بَدَتْ لهما سوءاتُهما حين ذوقهما الشجرة.

وقد قَدَّرَ اللهُ الحكيمُ أنْ يكونَ ظهورُ السوءاتِ بمجرد الأكْلِ من الشجرةِ وذوقِ ثَمَرِها، فكان ثَمَرُ الشجرةِ المُحرمةِ سبباً مباشراً لِبُدُوِّ السوْءات.

وإنَّ الإنسانُ ليتساءل: ما هي هذه السوْءات. وكيفَ بَدَتْ لهما بمجرد أكْلِهما من الشجرة؟. وأينَ كانتْ تلكَ السَوْءات قبل أكْلِهما؟ هل كانت السَوْءات مُغَطّاةً بالّشعرِ، فتساقَطَ الشّعرُ بمجرد الأكْلِ من الشجرة، فتعرَّى الجسمُ وبَدَت السوْءات؟ وهل كانت السوْءات مُغَطّاة بشيء آخر، فزال ذلك الغطاءُ بمجردِ الأكل من الشجرة؟ وهل كانت تلك السوءاتُ كامنةً في داخلِ الجسم فَبَدَتْ وَظَهرتْ وَبَرَزَتْ بعدَ الأكلِ من الشجرةِ؟

لم تُقدِّم الآياتُ إجاباتٍ على هذهِ التساؤلات، واكتفَتْ بربطِ بُدُوِّ السوءاتِ بالأكلِ منَ الشجرةِ.

وقد ذكرتْ أساطيرُ العهدِ القديمِ تفصيلاتٍ لذلك، وإجاباتٍ على تلك التساؤلات، افتَتَنَ بها بعضُ الإخباريّين المسلمين، فأوردوها في كتبهم. ولا نرى ذلك صواباً!!.

السَّوْءات هي العورات، وهي جمعُ "سَوْءَة"، وسُميت بذلك لأنه يَسوءُ الإنسانَ السَّوِيَّ – رجلاً كان أو إمرأة – كَشفُها، فيحرصُ على سترِها.

ويُشيرُ قوله: "فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاهما": إلى أنّ هذهِ السوءاتِ كانتْ موجودةً عندهما، قبل أكلِهما من الشجرة، ولكنَّهما لم يَلتفتا لها، ولم يَعرفا أنها سوءاتٌ إلاّ بعدَ الأكلِ من الشجرة.

فلما ذاقا الشجرة، وأكَلا من ثمارِها، ظَهَرَ لهما أنها سَوْءات، فصارا يَعرِفان أنها سوءات، وأنّ كَشْفَها عيب، وسارَعا بسَتْرِها بورقِ الجنة!!.

القرآنُ يقولُ: "بدت لهما سوءاهما"، والبُدُوُّ هو الظُّهورُ والبُروز، تقول: بَدا لي المستور: أي ظَهَرَ ما كان مَخْفِيّاً. فهو يُستَعملُ في إظهارِ ما كان كامناً مخفياً.

وخَصَّصَ القرآنُ ظهور السـوْءات لهمـا همـا: "بـدت لهمـا" فـاللاّمُ تَـدُلُّ علـى التخصيص، أيْ أنّ بُدُوَّ وظهور السوْءات كانَ لهما فقط.

لم يَعْرِفا أنها سَوْءات قبل الأكـل، ولم يَلْتَفتـا لهـا هـذا الالتفـاتَ قبـلَ الأكْـلِ مـن الشجرة، مع أنها أعضاءٌ موجودةٌ في جسمَيْهما، منذُ أنْ خَلَقَهمـا الله، لكنَّهمـا بعـد الأكْـلِ مـن الشجرة عَرَفا أنها سوءاتٌ وعوراتٌ ويجبُ سَتْرُها وتغطيتُها.

مثال يقرب لنا بدو السوءات لهما:

ومما يقرب لنا هذا الفهم لترتيب بُدُوِّ الســوءات لهمـا علـى الأكْـلِ مـن الشـجرةِ، استحضارُ حالةِ الطفلِ الصغير.

فالطفلُ الصغيرُ في سنوات عمره الأولى، قد يَمشي عارياً، وقـد يَكشـفُ عـن سـوأتِه أمامَ غيرِه، بدون تَحَرُّجٍ أو خجل، وهو لا يَفعل ذلك وقاحـةً أو قلّـةَ حيـاء وسـوءَ أدب، لكنّـهُ لا يَعرِفُ أنها "سوأة"، وأنها ترتبطُ بالشهوةِ واللّذةِ، وأنّ لها وظيفةً جنسـيـة. إنـه ينظـرُ لأعضـائِه التناسليةِ كما ينظرُ لأيِّ عضوٍ من أعضاءِ جسمِه، كاليدِ أو الرجـلِ أو اللسـانِ، لأنهـا لا تـوحي له بأكثر من هذا المعنى!.

فإذا ما كَبُرَ هذا الطفل وصارَ مُمَيِّزاً، فإنـه يَعـرفُ أنّ لهـا وظيفـةً جنسـية، ويصـير يُفكرُ في الشهوة واللّذّة، عند ذلك يَعرفُ أنها سـوأةٌ وعـورة، وأنّ كشْـفَها عيـب، فيحـرصُ على سترِها وتغطيتِها.

لعلّ هذا ما جَرى لآدَمَ وحَـوّاءَ بعـد أكلِهمـا مـن الشـجرة، فسَـوْءاهما موجـودةٌ عندهما قبلَ الأكلِ من الشجرة. كوجودِ سوأةِ الطفلِ الصـغير، ولم يَعرفـا أنهـا سـوءاتٌ كمـا لم يعرف الطفلُ الصغير.

ولعلّه كان "استيقاظَ" رغباتِهما وشهواتِهما بعد أكلـهما مـن الشـجرةِ، وكـانَ لثمـرِ تلك الشجرةِ الذي ابتَلَعاه صلةٌ مباشرةٌ بهذه الرغباتِ والشهوات!.

فالذي نفهمه من قوله: "فلما ذاقـا الشـجرة بـدت لهمـا سـوءاتهما": أنهـا كانـتْ موجودةً عندهما قبل الأكل، وكانَ ظهورُها لهما بعد الأكـل، فلـم يكـنْ هـذا الظهـور ظهـوراً مادياً، وإنما كانَ ظهوراً معنوياً، وبُدُوّاً نفسيّاً وجنسيّاً، شَـبيهاً بالبُـدُوِّ النفسـيِّ لسـوءاتِ الطفـلِ المميِّزِ بالنسبةِ له! لعلّ هذا هو الذي كان، والله أعلم.

(٣٩)
إسراعهما بستر السوءات

ماذا فعلَ آدمُ وحواء بعدَ ما بَدَتْ لهما سَوْءاتُهما؟

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢]

معنى "طَفِقا": شَرَعا وأخَذَا. يقال: طَفِقَ يعملُ كذا. أي: شَرَعَ يعملُه وبَدأ به.

ومعنى "يَخْصِفان": يَصِلان ويَلْزقان ويُغَطِّيان. يقال: خَصَفَ فُلانٌ نَعلَه. أي وَصلَهُ وألْزقَهُ وخاطَه.

ما الذي حصل؟.

بمجرد أنْ أكَلا من الشجرة بَدَتْ لهما سوءاتُهما، وبمجردِ أن عَرَفا أنها سوءات، حرصا على سَتْرِها وتغطيتها!

لقد كانا في الجنة، وأوراق أشجار الجنة عريضةٌ كبيرة يانعة، وكانا تحتَ أشجارِ الجنة.

شَعَرا أنّ الذي بَدا لَهما من جسمَيْهما سَوْءات وعورات، فقاما بحركةٍ سريعة عفوية، بدونِ تفكيرٍ أو رَوِيّة، صار كلُّ واحدٍ منهما يقْطَعُ من الأوراقِ التي أمامه، ويُلزقُها على جسمِه، ويخصفُها على بدنه، ويَحرصُ على أنْ يسترَ بها سوأتَه، حتى لا يراها الطرفُ الآخرُ أو غيرُه! لقد شعَرا بالحياءِ والخجلِ من ظهورِ السوءات، وسارَعا بسترِها فوراً.

ستر العورة فطرة إنسانية سوية:

وهذا التصرفُ منهما تصرفٌ فوريٌّ فطريٌّ، يتفقُ مع الفطرةِ الربانيةِ التي فَطَرَ اللهُ الناسَ الأسوياءَ عليها، وهي سَتْرُ العورة.

إنّ آدمَ وحوّاء – أصلُ البشرية – سارَعا إلى سَتْرِ العورة بمجردِ أنْ علما أنها عورة، وقبلَ أنْ يأمُرَهُما اللهُ بذلك.

وهذا المعنى الإنسانيُّ الفطريُّ النبيلُ جَعلَه اللهُ في كلّ نفس إنسانية، فهي مفطورةٌ على السترِ والفضيلةِ، والتعفُّفِ والحياء، وعدمِ إبداء السوأةِ وكشف العورة، والخجلِ إذا ظهرتْ بدونِ قصدٍ منه، ومسارعة تغطيتِها. هذه هي الفطرةُ الربانية، في كلّ نفسٍ سوية. كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]

هما يسارعانِ إلى تغطيةِ السوءات، وإبليسُ يحرصُ على كشف تلك السوءات: "فوسوس لهما الشيطانُ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاهما.."

الشيطان يريد "تعرية" الناس، لإشاعة الفاحشة والفجور بينهم، والفطرة الربانية الكامنة في أعماق النفس الإنسانية تدعو إلى ستر العورات، ومحاربة التعري والفواحش والرذائل.

وإن كشف العورات تصرف جاهلي شاذ، يتصادم مع الفطرة السوية. والعجيب أن حزب الشيطان من الشاذين والشاذات في هذا العصر الجاهلي حريصون على مصادمة الفطرة وتدميرها والقضاء عليها، ويستخدمون كل شيء من أجل أن "يتعرى" الرجال والنساء، في الأماكن العامة والخاصة، لا يكاد يستر عوراهم – حتى المغلظة منها– شيء، وانتشرت نوادي وأفلام وفضائيات العري في هذا الزمان، وغزت بلاد ومجتمعات وبيوت وعقول المسلمين.

وزين شياطين الإنس للناس المنحرفين أن التعري هو الأصل، وأن تغطية المرأة لبدها تخلف وانغلاق، وعدم استجابة لمتطلبات الحياة المعاصرة. فقتلوا الفطرة السوية عند المرأة، كما قتلوا عفتها وفضيلتها وطهرها، وصارت تتباهى بفتنتها وانحطاطها وقلة حيائها!.

وشتان بين ما يريده الرحمن من الناس، في ستر السوءات وتغطية العورات، وبين ما يريده الشياطين من محاربة الفطرة وكشف العورات!! وما أجمل وأعظم ما قام به أبوانا في الجنة، عندما سارعا بتغطية العورة بورق الجنة، بمجرد أن عرفا أنها عورة، يسوءهما كشفها!.

(٤٠)
الله يلوم آدم وحواء

ستر آدم وحواء سوءاتهما، وشعرا بالندم، وعرفا أن الشيطان قد خدعهما وكذب عليهما، وما أراد الخير لهما.

وكان إبليس ينظر إليهما وهو فرح مسرور، لقد حقق مراده منهما، وحملهما يمينه الكاذب على الأكل من الشجرة، وها هي سوءاتهما تبدو لهما، فلماذا لا يفرح وقد حقق هذه المكاسب ضد عدويه!.

ولكنه ساءه أن يسارع آدم وحواء إلى ستر سوءاتهما، لأن معنى هذا أنهما أدركا خطأهما، وشعرا بذنبهما، ولم يستسلما لإغواء الشيطان!.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣]

نادى الله الإثنين، آدم وحواء، ولامهما على أكلهما من الشجرة، وذكّرهما بنهيه السابق لهما، وقال لهما: "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة".

واللطيف في التعبير القرآني أنه لما نهاهما عن الاقتراب من الشجرة، أشار لها باسم الإشارة للقريب "هذه"، في قوله" ولا تقربا هذه الشجرة"، أما بعدما أكلا من الشجرة فقد أشار لها باسم الإشارة للبعيد " تلكما "، في قوله: " ألم أنهكما عن تلكما الشجرة".

فالشجرة قبل الأكل منها كانت قريبة، وبعد الأكل منها صارت بعيدة! مع أن مكانها في الجنة لم يتغير!!.

ولعلها قبل الأكل منها كانت قريبة إلى مشاعر النفس وأحاسيسها، وإلى عالم اللاشعور، تودها النفس، لأن "كل ممنوع مرغوب" -كما يقال- أما بعد الأكل منها، وما ترتب على ذلك الأكل من المخالفة وبدو السوءات والشعور بالذنب، فإن هذا جعل الشجرة بعيدة عن المشاعر والأحاسيس، فأشار لها بالإشارة للبعيد: "تلكما".

وذكّرهما الله في ندائه وعتابه بسابق تحذيره لهما من إبليس وعداوته: "وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين"!

وبينما تحدث القرآن عن نداء الله لآدم وحواء، فقد تحدثت أساطير العهد القديم عن "بحث الله" عن آدم.!

ذكر أحبار اليهود الكفار أنه عدما أكل آدم من الشجرة وانكشفت سوأته، كان يسير في الجنة، فسمع أقدام "الرب" وهو يسير، فاستحيى منه، لأنه أكل من الشجرة، فاختفى خلف شجرة من أشجار الجنة، ولما وصل الرب المكان الذي فيه آدم لم يجده، فبحث عنه، ثم ناداه: أين أنت يا آدم؟

فأجابه قائلاً: ها أنذا مختف خلف الشجرة لحيائي منك!.

فسأله الرب: لماذا؟ هل أكلت من الشجرة؟

قال: نعم يا رب!

وكأن الرب لا يعلم أن آدم أكل من الشجرة.؟ وكأنه لا يرى المكان الذي فيه آدم، فاضطر إلى البحث عنه، والمناداة عليه!! وهل هذا رب العالمين؟!!.

(٤١)
آدم وحواء متساويان في المسؤولية

سأل الله آدم وحواء لائماً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:٢٢]

فأجاباه معترفين تائبين: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]

واللافت للنظر في الآيات أنها تتكلم عن الإثنين، وليس عن آدم عليه السلام وحده، وهذا يشير إلى المسؤولية المشتركة لكل منهما، وليست مسؤولية آدم وحده، ولا حواء وحدها، فلم تكن مخالفة آدم وحده، ولا حواء وحدها.

كرر ضمير التثنية متصلاً بعدة كلمات، في الآيات التي تحدثت عن ذلك: "اسكن أنت وزوجك الجنة".. و: "فكلا من حيث شئتما".. و: "ولا تقربا هذه الشجرة".. و: "فتكونا من الظالمين".. و "فوسوس لهما الشيطان" و "ليبدي لهما".. و: "ما ووري عنهما".. و "من سوءاتهما".. و: "وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة".. و "إلا أن تكونا ملكين".. و: "أو تكونا من الخالدين".. و: "وقاسمهما".. و: "بدت لهما سوءاتهما".. و: "طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة " .. و: " ناداهما ربهما " .. و: "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة".. و: "واقل لكما".. و: "إن الشيطان لكما عدو مبين".

والآن وبعد عتاب الله لهما اعترفا " قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".

إن الآيات القرآنية حريصة على تحميل المسؤولية لكل من آدم وحواء، وعدم تبرئة واحد منهما: هما أخطأا، وهما تابا واستغفرا، وتاب الله على كل منهما، ولم يعاقب واحداً منهما.

أما أساطير العهد القديم فإنها تُحمل حواء مسؤوية إغواء آدم، واستعانة الشيطان بها لتحقيق مراده من آدم، وآدم نفسه حملها المسؤولية، وقال: هي التي أغوتني، وعاقب الله حواء عقوبة شديدة بسبب جريمتها، بأن جعلها تحيض دورتها الشهرية، وعاقبها بآلام الحمل والوحام، ثم آلام الولادة والرضاع.

وهذه أكاذيب العهد القديم، التي تتعارض مـــع الآيـــات القرآنيـــة الصـــريحة في تحميـــل المسؤولية لآدم وحواء معاً.

(٤٢)
توبة الله على آدم وحواء

شعر آدم وحواء كلاهما بخطأ ما فعلا، وتحملا مسؤولية ذلك الفعل، واعترفا بما صدر عنهما.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣]

لامهما الله على أكلهما من الشجرة، وذكرهما بنهيه السابق لهما عن الأكل من الشجرة، وتحذيرهما من عداوة الشيطان.

وأجابا على سؤال الله لهما باعترافهما وندمهما، وأنهما ظلما نفسيهما بأكلهما من الشجرة، وهما ينتظران الآن رحمة الله ومغفرته.

ويلاحظ في هذا الاعتراف أنهما لم يحاولا أن يبررا ما فعلا، ولم يلقيا المسؤولية على الشيطان. فلم يقولا: يا ربنا إن الشيطان هو السبب، فهو الذي وسوس لنا، وهو الذي أقسم لنا اليمين، وأننا كنا حذرين منه، لكننا لما أقسم اليمين صدقناه، لأننا لم نتوقع أن يحلف كاذباً، فهو السبب!!.

لم يفعلا ذلك، كما يفعله كثير من العصاة والمذنبين من ذريتهما، فعندما يقع أحدهم في ذنب يبرر ذنبه بعدة تبريرات، ويُحمل غيره مسؤولية إغوائه، ويجعل نفسه ضحية.

المؤمن يقتدي بأبويه آدم وحواء، فيعترف بذنبه وضعفه وخطئه، ويسارع بالتوبة والاستغفار، ويطلب من الله المغفرة والرحمة.

وقد أخبرنا الله عن توبة آدم وحواء في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣]

وأشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٧]

الإشارة إلى التوبة في سورة البقرة مجملة، وهي مفصلة في سورة الأعراف، وحتى نعرف الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام، لا بد أن نستحضر آية سورة الأعراف، وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع فُصل في موضعٍ آخر، وما أُبهم في موضعٍ بُين في موضعٍ آخر.

الكلمات التي تلقاها آدم من ربه:

تلقى آدم كلمات من الله، أي: أوحى الله بها إليه، وآتاهُ إياها، وهذا من رحمة الله به، وإنقاذه له.

لم يتركه الله في معصيته وفعله، ولم يجعله صريع الشيطان، وإنما تداركه وأسعفه، بأن ألقى إليه كلمات طيبة، ليقولها ويتجاوز لحظة ضعفه.

واستفاد آدم بفطنته من الفرصة التي أوجدها الله له، وتلقى الإشارة من الله، وأخذ ما أوحى إليه من كلمات، وهذا من توفيق الله له، ومن تحقق الخير فيه.

أخذ آدم الكلمات التي تلقاها من الله، وعلّمها لزوجه حواء، التي وعتها وفهمتها.. ثم تضرعا معاً إلى الله بالذكر والمناجاة والدعاء، وقالا: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".

١. اعترفا بما صدر منهما، وتحملا المسؤولية، ولم يحاولا تبرير ذلك، كما قلنا قبل قليل.
٢. اعتبرا ما فعلاه ظلماً، ظلما به نفسيهما، وهذا معناه أن كل ذنب ظلم، وهذا الظلم مراتب ودرجات، فمن الذنوب ما هو ظلم عظيم كبير، ومن الذنوب ما هو أدنى وأقل.

وأعظم الذنوب قبحاً وأكثرها ظلماً هو الشرك بالله، وقد أخبرنا الله عن وصية لقمان لابنه بعدم الشرك، لأنه ظلم عظيم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]

والظلم هو تجاوز الحد. والذنب ظلم لأن المذنب يتجاوز حده بذنبه، فالله خلق الناس لعبادته، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ورسم لهم حداً لا يتجاوزونه، فإذا أذنب أحدهم فإنه يكون قد تجاوز حده وطغى وبغى.

٣. ذكرا طريقين يسلكهما الناس بعد الذنب. فمنهم من يقلع عن الذنب، ويتخلى عن الظلم، ويندم على ما فعل، ويتوب إلى الله، فيتوب الله عليه، ويمنُّ عليه بالرحمة والمغفرة، ويكون في النهاية من الفائزين الرابحين المفلحين.

ومنهم من يرتكس في الذنوب، ويبقى صريعاً هابطاً، يعيش في الأوحال ويستسلم للشيطان، ويكون في النهاية من الخاسرين الهالكين.

هذان الطريقان مأخوذان من قولهما: "وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".

وعلم الله منهما صدقهما في التوبة، وشعورهما بالندم على ما حصل، فمنَّ عليهما بالتوبة والرحمة، لأنه غفور يغفر لعباده التائبين، رحيم يرحمهم ويوفقهم لما فيه الخير: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم".

المهم أن يشعر المذنب بالخطأ، وأن يندم على ما فعل، وأن يسارع بالتوبة والاستغفار، وأن يؤمن أن الله غفور رحيم، فهذا المؤمن يغفر الله له، ويتوب عليه، كما تاب على أبويه آدم وحواء.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١]

(٤٣)

عصى آدم ربه

اعترف آدم وحواء بما فعلا، واعتبراه ظلماً: " قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ".

وقد وقعا في المحظور عندما أكلا من الشجرة، وفعلهما في الظاهر معصية، لأنه مخالفة للنهي الصريح. وقد سماه الله معصية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]

عصى آدم ربه! بنص القرآن. ولكن كيف عصى ربه وهو النبي؟ والأنبياء معصومون!.

فعله معصية في الظاهر، لأن الله نهاه عن الأكل من الشجرة، فخالف النهي وأكل منها، وهذا الفعل معصية.

لكنه لم يأكل من الشجرة عامداً متعمداً، فلم تكن معصية متعمدة، وإنما كانت عن سهو وغفلة ونسيان.

أخبرنا الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه:١١٥]

عهد الله لآدم، ولكنه نسي، ولم يكن له عزم!.

فما الذي عهد الله له به؟ وما الذي نسيه؟ وما العزم الذي نفاه الله عنه؟

ذهبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ الذي عهدَ اللهُ إليه به هو تكليفُه له بعدم الاقتراب من الشجرة. وأنه نسيَ هذا العَهد والتكليف من الله عندما أكَلَ من الشجرة، وبذلك لم يكنْ له عزمٌ أو عزيمةٌ أو قوةُ إرادة، بل هو ضعيفُ الإرادة والعزيمة. ولسْنا مع هؤلاء الجمهورِ في هذا الفهم للآية.

عَهِدَ اللهُ لآدمَ عندما نهاهُ عن الاقترابِ من الشجرة، وَعَهِدَ له عندما حَذَّرَه من عداوةِ الشيطان، وَذَكَر له هدفَه في إغوائِه وإضلاله وكَشْفِ سوأته وإخراجه من الجنة.

وبقيَ آدمُ عليه السلام حافِظاً لهذا العهد الرباني، مُراعياً له، مُلتزماً به، ووسوس له الشيطانُ عدَّةَ مرات وهو منتبهٌ يقِظ، وَدَعاهُ إلى الأكلِ من الشجرةِ ليكونَ مَلَكاً ويكونَ خالداً، ولم يستجبْ له، لأنه مُراعٍ لعهدِ الله، ملتزمٌ به.

ولكنَّه بعدَ ذلك أقسمَ الشيطانُ له أنه له ناصح، فانخدعَ آدمُ بيمينِه، وعندَ ذلك نسيَ عهدَ الله بعدمِ الأكلِ من الشجرة.

أكل آدم من الشجرة ناسياً غير عامد:

إن آدم لما أكل من الشجرة كان ناسياً لعهدِ الله، فلم يكنْ أكْلُه عن قصد وتَعَمُّد وتصميم، وإنما كان عن سهوٍ وغفلةٍ ونسيان!.

ومعنى جملة: "ولم نجد له عزماً": لم نجدْ عندَه تصميماً وقَصْداً للأكْلِ من الشجرة، فهو لم يَتَعَمَّد المخالفة، ولم يُصِرّ على ارتكابِ المحظور.

وعلى هذا الفهم للآية، فإننا نعتبرُها بمثابةِ اعتذار لآدَم عليه السلام، ودفاعٍ عنه، وبيانِ الجَوِّ الذي أكَل فيه من الشجرة، وتوجيهٍ لهذه الحادثة.

عندما أكَل من الشجرةِ كان في حالة نسيان، وعدمِ تذكُّر وتَعَمُّد، ولو كان ذاكراً لعهدِ الله لما أكَلَ منها، فالنسيانُ يَنفي عنه القصد والتعمد!.

والخلاصةُ في معنى الآية: يُخبرُ اللهُ أنه عَهِدَ إلى آدمَ بعدم الأكْلِ من الشجرة، فنسيَ ذلك العهد بعدَ يمين إبليس، وأكَلَ من الشجرةِ ناسياً، ولم يَجد الله له عَزماً على المخالفة، ولا قَصْداً وتعمداً في الأكل!.

وإذا كان أكَلَ من الشجرةِ ناسياً، فلماذا وُصِفَ ذلك بأنه معصيةٌ في قوله تعالى: "وعصى آدم ربه فغوى"؟.

إنه معصيةٌ في الظاهر، لأنه ارتكابٌ لما نَهى اللهُ عنه، ولكنَّ هذه المعصيةَ عن نسيان، وليس عن تَعَمُّد، فهي ليستْ معصيةً في الحقيقة، لأنَّ الناسي لم يتعمد المخالفة.

ولا يؤاخذُ اللهُ المسلمَ إذا أذنبَ وعصى وهو ناسٍ، ويطالبُهُ بالتوبة والاستغفار عندما يتذكر. ولهذا يَدعو المؤمنونَ ربَّهم أنْ لا يؤاخِذَهم عند نسيانهم. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٦]

وورد بهذا المعنى قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأُ والنسيانُ وما استكرهوا عليه".

وإذا كانَ المسلمُ غيرَ مؤاخَذٍ بذنبٍ يرتكبهُ وهو ناسٍ، فكيفَ يؤاخَذُ النبيُّ آدمُ عليه السلام.

ثم إنَّ اللهَ أخبرَ عن ما صدرَ من آدم عليه السلام بالفعل الماضي: "وعصى آدم ربه فغوى".

ويدلُّ الفعلُ الماضي على عدمِ تكرارِ الفعل. وإنما حصوله مرةً واحدة، بينما يدلُّ اسمُ الفاعلِ على أنَّ الفعلَ صارَ حالة عامةً دائمةً لصاحبه. وفَرْقٌ بين قولك: عصى فلان، وقولك: فلانٌ عاصٍ.

ولم يقل الله: إنَّ آدَم عاصٍ. وإنما قال: عصى آدمُ ربَّه. ووقوعُ المخالفةِ منه مرةً واحدةً في ذلك الجو والعذرِ المخفف يدلُّ على عدمِ مؤاخذته بذلك الفعل!.

ثم إنَّ آدمَ عليه السلام سارعَ بالتوبةِ والاستغفار، فغفرَ اللهُ له، ولذلك قالَ اللهُ عنه: " ثم اجتباه ربه فتاب عليهِ وهدى". ومعنى: "اجتباه " اختاره واصْطَفاه.. واجتباؤُه اجتباءُ نبوة. أيْ: جعلَه اللهُ نبياً وهداه.

خوف آدم من فعله:

مع أن آدم عليه السلام تابَ واستغفر، وتابَ اللهُ عليه وغفرَ له، إلاّ أنَّ آدمَ عليه السلام يَبقى خائفاً من فعلِه، يخشى من المؤاخذةِ عليه.

وقد أخبرَنا عن خوفِه يوم القيامة الرسولُ صلى الله عليه وسلم، في حديثِ الشفاعةِ الطويل. روى البخاري (برقم: ٣٣٤)، ومسلم (برقم: ١٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "... يَجمعُ اللهُ يومَ القيامة الأوَّلين والآخرينَ في صعيدٍ واحد، فيسمعُهم الداعي، وَيَنْفذُهُم البَصر، وتدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغَمِّ والكرب مالا يُطيقون، وما لا يَحْتملون..

فيقول بعضُ الناسِ لبعض: ألا ترونَ ما أنتم فيه؟ ألا ترونَ ما قد بَلَغَكم؟ ألا ترون مَنْ يشفعُ لكم إلى ربّكم؟

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ائتوا آدمَ!.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدمُ: أنتَ أبو البشر، خَلَقَكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيكَ من روحه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفَعْ لنا إلى ربِّك. ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغنا؟

فيقول آدم: إنَّ ربي غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبله مثله، ولنْ يغضبَ بَعدَه مثْلَه، وإنه نهاني عن الشجرةِ فعصيتُه.. نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح..".

(٤٤)

بين معصية آدم ومعصية إبليس

آدم عصى ربه بالأكل من الشجرة، وإبليس عصى ربه بعدم سجوده لآدم، وهما أول معصيتين وقعتا في الوجود. وإبليس عصى ربه أولاً، فأول معصية كانت من الجن، وثاني معصية كانت من الإنس.

والراجحُ أنّ إبليسَ هو أبو الجن، كما أنّ آدمَ هو أبو الإنس، فبدأ الجنّ تاريخَهم بمعصيةٍ صدرت من أبيهم إبليس، وبدأ الإنسُ تاريخَهم أيضاً بمعصيةٍ صدرتْ من أبيهم آدم. ومعلوم أنّ الإنس والجن مكلفون، وجعل الله عندهم قدرة على الطاعة، كما جعل عندهم قدرة على المعصية.

وَعندَ النظر في معصية كُلٍّ من إبليس وآدم، فإنهما ليستا بدرجةٍ واحدةٍ، وبينهما عدةُ فروق، منها:

١- معصيةُ إبليس وقعت أولاً، ومعصية آدم مبنية على معصية إبليس، فإبليس أرادَ أنْ ينتقمَ منْ آدمَ، لأنهُ يحقدُ عليه ويكرهه، لأن الله فضَّلهُ عليه.

٢- معصيةُ إبليس كانتْ عن قَصْد وتعمد وسَبق إصرار، وكانت تمرداً على الله، ورفضاً صريحاً لأمره، بينما كانت معصية آدم عن سهو وغفلة ونسيان، بنص القرآن: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما..".

٣- كانت معصية إبليس بسبب استكباره وإبائه، لأنه رأى نفسه خيراً من آدم، فلما سأله الله: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين؟" أجابه باستكبار: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"...

أما معصيةُ آدمَ فَقَدْ كانت بسبب سهوهِ ونسيانه، وكانت من مظاهر حسن ظنه، إذ أنه لما سمع إبليس يقسم اليمين أحسن الظن به وصدقه.

٤- نتج عن معصية آدم ندمه وشعوره بالذنب، واعترافه بالظلم والخطأ، والتوبة والاستغفار، واللجوء إلى الله، وطلب المغفرة منه: " قالا ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " ولذلك تاب اللهُ عليه وغَفَرَ له.

أما معصيةُ إبليسَ فقد نتج عنها إصرارهُ على المخالفة، ووقاحته في خطابهِ لله، حيثُ اتهم الله بإضلاله وإغوائه، وتعهد أمام الله بالقعود على الطريق المستقيم، والحرص على إضلالِ أبناء آدَم، وإبعادِهم عن الحق. قال تعالى: "قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك

المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين".

هما نموذجان لمعصية المؤمن ومعصية الكافر:

٥- معصية آدم نموذجٌ لمعصيةِ المؤمن الصالح، الذي قد يَغفلُ ويَسهى وينسى، فيقعُ في المعصية، ثم يتوبُ إلى الله، فيتوبُ اللهُ عليه، وبذلك يزداد قرباً من الله بعدَها.

أما معصيةُ إبليسَ فهي نموذجٌ لمعصيةِ الكافر، الذي تَزيدُه معصيتُهُ كفراً وجحوداً، واستكباراً وعناداً. ولذلك قالَ اللهُ عن إبليسَ وكفره: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤]

آدمُ الذي عصى بالأكْلِ من الشجرةِ صارَ بعدَ التوبةِ أولَّ نبي، وإبليسُ الذي عصى بعدم السجود كان أولَّ كافر، بل كان بمعصيته قائد الكافرين إلى نار جهنم!.

وذنوبُ ومعاصي بني آدم من الإنسِ وبني إبليسَ من الجنِّ لا تخرجُ عن هذين النوعين من المعاصي: معصيةِ آدم، ومعصيةِ إبليس.

فمعاصي الجنِّ والإنسِ المؤمنين كمعصيةِ آدمَ، تكونُ عن غفلةٍ وضعف، وينتجُ عنها الندمُ والاعترافُ بالخطأ، ثم التوبةُ والاستغفار، ويزدادُ بَعدَها المؤمن قُرْباً من الله، وذِكْراً وعبادةً له.

أما معاصي الجنِّ والإنس الكافرين فإنها كمعصية إبليس، حيث تكونُ عن تَعَمُّدٍ وإصرار، ويزدادُ بَعْدَها الكافرُ كُفراً بالله وبُعْداً عنه!.

(٤٥)

الجدال بين آدم وموسى

قد يتأثَّرُ بعضُ أبناءِ آدمَ مِن ما فعلَه أبوهم بأكْلِه من الشجرة، لأنه نتجَ عن ذلك إنزالُه إلى الأرض، ولعلَّ أحَدَنا يتمنّى لو لم يكنْ آدمُ أكَلَ من الشجرة، لتكونَ حياتُنا نحنُ في الجنة، وليس هنا على الأرض، حيثُ التكليفُ والمسؤوليةُ والهَمُّ والغَمُّ!.

ولعل بعضَ هذه الأفكارِ كانت تراودُ نبيَّ اللهِ موسى عليه السلام. وقد جَمَعَهُ اللهُ بآدمَ جَمْعاً غيبيّاً خاصّاً في عالم الغيب، وجرى بينهما جدالٌ وحجاج، عاتب فيه موسى آدَمَ، وردّ آدَمُ عليه، وأفحمهُ وحجهُ وغلبهُ.

وأخبرَنا عن الجدال الأخَويِّ بينهما رسولُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم.

روى أبو داود (برقم: ٤٧٠٢) ومالك في الموطأ (٢: ٨٩٨) عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: قال موسى: يا رَبِّ أبونا آدَم، أخرَجَنا ونفسه من الجنة!.

فأراهُ اللهُ آدمَ.. فقالَ له: أنتَ آدَم؟ قال: نعم.

قال: أنتَ الذي نفخَ اللهُ فيكَ من روحه، وأسجدَ لكَ ملائِكتَه، وعلمكَ الأسماءَ كلها؟ قال نعم.

قالَ: فما حَمَلَك على أنْ أخرجْتنا ونفسك من الجَنَّة؟

فقال له آدم: منْ أنت.؟ قال: أنا موسى.

قال: أنت موسى بني إسرائيل، الذي كلمكَ اللهُ من وراءِ الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خَلْقه؟.. قال: نعم.

قالَ: فتلومُني على أمْرٍ قد سَبَقَ من الله القضاءُ قَبْلي؟

قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: فَحَجَّ آدمُ موسى. فَحَجَّ آدمُ موسى!".

وفي لفظٍ آخر، رواه البخاري (برقم: ٣٤٠٩)، ومسلم (برقم: ٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "حاجَّ آدمُ موسى عليهما السلام.

فقال له: أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنْبِك من الجنة، وأشقَيْتَهم؟.

قالَ آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاك اللهُ برسالاتهِ وبكلامه، أتلومُني على أمرٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عليّ، أو قدرهُ عليّ، قبلَ أنْ يخلقَني؟

قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فَحَجَّ آدمُ موسى..".

موضوع الجدال بينهما:

على ماذا لامَ موسى آدم عليهما السلام؟.

ذهب بعضُهم إلى أنه لامَهُ على أكلِه من الشجرة، لأنه نتجَ عن ذلك إخراجه من الجنة، وكأنّهُ يقولُ له: لماذا أكلْتَ يا أبانا من الشجرة؟ وَرَدَّ عليه آدمُ بأنَّ اللهَ قَدَّرَ عليه الأكْلَ من الشجرة، فكيف يلومه على الأكل الذي قَدَّرَهُ اللهُ عليه، والذي تاب منه بعد ذلك.؟ ولذلك مَجَّ آدمُ موسى وغَلَبَه!.

وهذا فهمٌ مرجوحٌ مردود!

لم يَلُمْ موسى آدمَ على أكله من الشجرة، إنما لامَهُ على إخراجه نفسه وبنيه من الجنة إلى الأرض، ذلك الإخراجُ الذي ترتَّبَ على الأكْل، لكن لوم موسى توجَّهَ إلى الإخراجِ وليس الأكْل.

وألفاظُ اللومِ تدلُّ على هذا. حيثُ قالَ له في الحديث الأول: "ما حَمَلَك على أنْ أخرجْتَنا ونفسَك من الجنة؟".

وقال له في الحديث الثاني: "أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبِك من الجنَّة، وأشقيتهم؟" ولما ردَّ آدم عليه لم يُبَرِّر أكلَه من الشجرة، ولم يُدافِع عن نفسه، وإنما أخبره أنه لم يُخرج نفسه وبَنيه من الجنة، وإنما هو الله الذي أخرجهم. وهذا واضحٌ في ألفاظ الرد: "أتلومني على أمر قد سبق من الله القضاء قبلي؟" و: "أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ، أو: قدره علي قبل أن يخلقني؟".

وكأنَّ آدمَ يقول لموسى عليهما السلام: أنا لم أخْرجْكم من الجنة، وإنما أخرجَكم الله، لأنه سبحانه هو الذي رتَّبَ الإخراجَ على الأكل من الشجرة، وقدّرَ ذلكَ قبلَ أنْ يخلقَني، وأنتَ تلومني على أمرٍ ليسَ لي نسبة فيه! لأن كَوْن الإخراج من الجنة مرتباً على الأكل من الشجرة ليسَ من فعلي، إنما هُوَ منْ قَدر الله!.

وقَد شَهِدَ رسولُنا محمد صلى الله عليه وسلم لآدمَ بأنه حَجَّ موسى وغَلَبَه، لأنَّ حُجَّة آدمَ كانت أوضح، فهي متفقة مع إثبات القدر، والإيمان والرضا به.

فالله الحكيمُ الخبيرُ هوَ الذي قَدّرَ تَسلسل وتَتـابع أحـداث قصـة آدمَ في الجنـة، هـو الذي قدر أن ينهى آدم عن الأكلِ منَ الشـجرةِ، وعلـمَ أن آدمَ سَيَنْسـى ويأكـلُ منـها، وهـو الذي رَتَّبَ إخراجَه من الجنة بعدَ الأكل، فكل ما جرى له إنمـا كـان بقـدر الله، فكيـف يلومـه موسى على الإخراج من الجنة؟ لذلك حجه آدم وغلبه، عليهما الصلاة والسلام!.

(٤٦)
من الجنة إلى الأرض

شاءَ اللهُ أنْ تنتهي أحداثُ قصةِ آدمَ في الجنة، بعدما تابَ وأناب، وتابَ الله عليه، واجْتباه واصْطفاه.

وأمَرَ اللهُ باهباطِ الثلاثة إلى الأرض: آدم، وزوجه حواء، وعدوّه إبليس. قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٦-٣٨]

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف:٢٤]

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣]

تخبرُ آياتُ سورةِ البقرةِ أنّ إبليس بوسوستهِ أزَلّ آدمَ وحواء إزلالاً، فأخرجهما مما كانا فيه، من نعيم الجنة وخيراتها. والإزلالُ هو الإسقاط. تقولَ: زَلّتْ قَدمُ فلانٍ أثناءَ السير: أي: انحرفَت قدمُه فسقط. وتقول: زَلّتْ به قدَمُه. أي: سقط، وتقول: أزللْتُ فُلاناً. أي: دفعتُه وأسقطتُهُ، فَزَلّ وسقَط.

فإبليسُ أزلّ كلاًّ من آدم وحواء، أيْ أسقطهما، وذلك عندما أكَلا من الشجرة، وبذلك أخرجهما مما كانا فيه من نعيم الجنة.

ونُسب الإزلالُ والاخراجُ في الآية إليه: "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه.." لأنّه هو المتسببُ في ذلك، فهو الذي وسوسَ وزينَ لهُما الأكلَ من الشجرةِ.

واللهُ الحكيمُ قدّرَ بحكمته أنْ يكونَ هبوط آدم إلى الأرض بعدَ أكلهِ من الشجرة ولذلك أهبط اللهُ آدمَ وحواءَ إلى الأرض، وقال لهم: "اهبطوا منها جميعاً".

وعندما ننظرُ في الأمرِ بالهبوط من الجنةِ إلى الأرض، فإننا نجدُ فعلَ الأمرُ على حالتين:

الأولى: كان فيها مُسنداً إلى ضميرِ المثنى. وذلك في سورة طه: " قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو".

الثانية: كان فيها مُسنداً إلى واو الجماعة، وذلك في سورةِ البقرةِ وسورةِ الأعرافِ: "اهبطوا بعضكم لبعض عدو".

ويَبدو أنّ الأمْرَ في سورة طه كان موجَّهاً إلى آدمَ وإبليسَ: "اهبطا منها جميعاً" على أنّ آدمَ هوَ أبو الإنس، وإبليسَ هو أبو الجنِّ.. فلما أهبطَهما اللهُ على الأرضِ انتشرَ من آدم الإنسُ، وانتشر من إبليسَ الجنُّ. واللهُ أعلم.

والأمرُ في سورةِ البقرةِ وسورةِ الأعرافِ كانَ موجهاً إلى الثلاثة الذين عرفناهُم من القصةِ: آدمَ، وزوجهِ حواءَ، وإبليسَ: "اهبطوا بعضكم لبعض عدو.".

وهكذا انتهتْ أحداثُ قصةِ آدمَ في الجنةِ، دارِ النعيم للمؤمنين، وبدأت أحداثُ القسمِ الثاني من قصتهِ، وهوَ المتعلقُ بحياتهِ على الأرض.

القسم الأول الذي جرت أحداثهُ ومشاهدهُ في الجنة، وهو المتعلق بمَراحل خَلقه: من تراب، ثم من طين، ثم من طين لازب، ثم من حَمأ مسنون، ثمَ مَنْ صَلْصال كالفخارِ، وَنفخُ الروح فيه، وسجود الملائكة له، وتَفوقه في الامتحان على الملائكة، وخلق زوجهِ حواءَ له، واستمتاعهما بالأكل من حيثُ شاءا من أشجارِ وثمارِ الجنةِ، إلا شجرةٍ واحدةٍ، نهيا عن الاقترابِ منها، وَوَسوسةُ الشيطانِ لهُما، وحلفه اليمين لهما بصدقهِ في نصحهما، ونسيانهما وأكلهما من الشجرة، وبدوُّ سوءاتهما لهما بعد الأكْلِ مباشرة، وشعورهما بالحياءِ، وتَغْطِيَتهما السوءات بورق الجنةِ، ولومُ الله لهما، وتوبتهما واستغفارهما، ومغفرة الله لهما، ثم أمرهما بالهبوط من الجنة إلى الأرض.

لا نعرف كيفية الهبوط ولا مكانه:

ويبدأ القسمُ الثاني من قصةِ آدمَ منْ لحظةِ هبوط الثلاثةِ إلى الأرض.

وكيفية هبوط الثلاثة من الجنة إلى الأرض مبهمة، لا يعلمها إلى الله، ولم يخبرنا بها، فلا نخوض فيها، ولا نحاول معرفتها.

والبقعة التي هبطوا عليها مبهمة، لم يبينها الله لنا، فلا نعرفها ولا نخوض بها، ولا نلتفت إلى الإسرائيليات التي تحدثت عنها، والأساطير التي حددتها.

فمن أدرى أصحاب الإسرائيليات والأساطير أنهم هبطوا في الهند أو سيلان – سرنديب قديماً وسريلانكا حالياً – أو في إفريقيا؟ ومن أدراهم أن آدم أهبط في الهند، وأن

حواء أهبطت في المغرب، وأهما قاما بالبحث، يبحث كل منهما عن صاحبه، فتوجه آدم غرباً بحثاً عن حواء، وتوجهت حواء شرقاً بحثاً عن آدم، وأهما التقيا وتعارفا على جبل عرفات، وسمي الجبل عرفات لأهما تعارفا عليه؟!.

هذه الإسرائيليات والأساطير لا نقول بها، ونكتفي بما ورد في القرآن، ونسكت عن ما سكت عنه القرآن، ويسعنا ما وسع الصحابة في ذلك، حيث لم يسأل أحد منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كيفية الهبوط من الجنة إلى الأرض، ولا عن البقعة التي هبطوا عليها!.

(٤٧)
العداوة بين الأطراف على الأرض

لما كان آدمُ وحواءُ في الجنةِ كانا في غاية النعيم والرَّغَدِ والأمان. ويبدو ذلك من قول الله لهما: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٣٥]

كما يبدو من قولِ اللهِ لآدمَ:

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه:١١٨-١١٩]

ولما أهبطَ اللهُ آدمَ وحواءَ وإبليس إلى الأرض أخبرهم بالعداوة المتأصلة بينهم:

قال تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة:٣٦]

وهذه سُنَّةٌ ربانيةٌ مُطَّرِدَة دائمة، حتى قيام الساعة، أجْمَلَتها جملة موجزة في القرآن، وهي جملة: "بعضكم لبعض عدو.".

العداوةُ موجودةٌ بين الجن والإنس، الجنِّ الذين يمثِّلُهم أبوهم إبليس، والإنس الذين يمثلهم أبوهم آدم. وكم من الخلافات والنزاعات والعداوات بين عالم الجن وعالم الإنس، وبين المؤمنين من الجنِّ والإنسِ من جهة، والكافرين من الجنِّ والإنس من جهة أخرى.

كما أنَّ قولَه تعالى: "بعضكم لبعض عدو" يُشيرُ إلى الخلافاتِ والعداواتِ التي تقعُ بينَ مجموعاتِ وأفرادِ الجنِّ فيما بينهم، وإلى الخلافاتِ والعداواتِ التي تقعُ بين مجموعاتِ وأفرادِ الإنسِ فيما بينهم.

وإذا كنا لا نعرفُ تفاصيلَ ومظاهرَ وصورَ الخلافِ والعداوةِ بين أفراد الجنّ، لأننا لا نعرف تفاصيل حياهم، فإننا نعرفُ الكثير من صورِ العداوةِ التي تقعُ بين عالم الإنسِ، والتي تدخل ضمن هذه الجملة المجملة: "بعضكم لبعض عدو".

كم من الخلافاتِ والعداواتِ تقعُ بينَ الأفرادِ القريبين من الإنسِ، كالزوجِ مع زوجهِ، والأبِ مع ابنهِ، والأخ مع أخيهِ، والقريب مع قريبه، والصديق مع صديقه.. وكم

من الخلافات والعداوات تقعُ بينَ أفرادِ الأسرةِ الواحدةِ، والعائلةِ الواحدةِ، والقبيلةِ الواحدةِ، والمدينةِ الواحدةِ، والوظيفةِ الواحدةِ، والمهنةِ الواحدةِ، والدولةِ الواحدةِ.. وكم من الخلافاتِ والعداواتِ تقعُ بينَ الأممِ والشعوبِ والدولِ، وتؤدي إلى الحروبِ والقتالِ وسفكِ الدماءِ... وتقعُ تلكَ العداواتُ والخلافاتُ لأسبابٍ عديدةٍ، كالخلافِ على المالِ أو الجاهِ أو الأرضِ أو المنصبِ أو العملِ أو غيرِ ذلكَ.

ويؤكّدُ هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣]

كما يؤكدهُ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٨-١١٩]

ولا تنتهي العداوةُ بين مختلفِ الأطرافِ إلا عندَ قيامِ الساعةِ، فالخلافُ والنزاعُ والحربُ والعداوةُ، كل هذا مستمرٌّ على الأرضِ، منذُ هبوط آدمَ وإبليسَ على الأرضِ.

ولن يتحققَ السلامُ على الأرض ولن يتوقف الخلافُ والعداءُ، إلاّ في آخرِ لحظاتِ الحياةِ على الأرض، وذلك عندما ينزلُ اللهُ عيسى عليه السلامُ على الأرضِ، فيكسرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وتتوقف الحربُ بينَ الناسِ!.

ولذلك لما التقى موسى بالخضر عليهما السلام، مرتحلاً إليه في طلب العلم، طرح عليه السلام قائلاً: السلام عليكم. فقال له الخضر: وعليكم السلام. ثم قال له: وأنّى بأرضك السلام؟!.

أي: كيف يتحققُ على أرضِك السلام؟! إنّ السلامَ لن يتحقق على أرضك، لأنّ الحربَ والعداوة ستبقى موجودة عليها. وهذا تطبيقٌ لقوله تعالى: :بعضكم لبعض عدو..".

(٤٨)
الصراع بين الحق والباطل

لما أهبطَ الله آدمَ إلى الأرضِ أخبرَه بالعداوةِ بين مختلف الأطراف – كما بيّنا قبل قليل – كما أخبرَه بأنه سيؤتي ذريتَه الهُدى، وأنّهم سينقسمون في موقفهم من الهدى إلى قسمين: مؤمنون يَقْبلونه، وكفارٌ يَرْفضونه.

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩]

وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]

تدلُّ هذه الآياتُ من سورة البقرةِ وسورةِ طه على أنّ الله سيرحمُ الناسَ على الأرض، ولن يتركهم حيارى تائهين ضائعين، سيؤتيهم الهدى منه ليهتدوا به.

وهذا معناهُ أنّ الله سيختارُ منهم رسلاً وأنبياء، وسيُنزُل عليهم هداه، المتمثلُ في كتبِه ورسالاتِه، وهم سيُبَلّغون الناسَ هذا الهدى الرباني.

فالهدى رحمةٌ من الله، يرحمُ به عبادَه، والنبوةُ والرسالةُ رحمةٌ من الله للناس، لأنّ الهدى يأتيهم على يد الأنبياء، ولذلك قالَ اللهُ لرسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]

وأنزل الله هداه على أنبيائه ورسله، ليهتدي به الناس، ويميزوا بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣]

حزب الله في مواجهة حزب الشيطان:

والناس في موقفهم من هدى الله فريقان:

الفريق الأول: المؤمنون الصالحون، الذين اتَّبعوا هدى الله، وصَدَّقوا الرسل، واستقاموا على طاعة الله، فهؤلاء سعداءُ في الدنيا، لا يضِلُّ أحَدُهم ولا يشقى، وهم في أمانِ الله، لا يخافون ولا يحزنون. وهم الذين قال الله عنهم: "فمن تبع هداي فلا خوف عليه ولا هم يحزنون". وقال عنهم: "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى".

الفريق الثاني: الكافرون المكَذِّبون بآياتِ الله، الذين أعرضوا عن ذكْرِ الله، ورفضوا هُداه، وحارَبوا رسلَه، واتبعوا الشيطان، وهؤلاء خاسرون هالكون، وفي الآخرة معذَّبون بالنار. وهم الذين قالَ اللهُ عنهم: "والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون". وقال عنهم: "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى".

والذين يقودون المؤمنين المهتدين هم الأنبياءُ والرسل، ثم أتباعُ الرسل من العلماء والدعاة.. بينما يقودُ الكافرين المكذِّبين إبليس، وأعوانُه من مردة شياطين الإنس والجن.

إنَّ هذا الأمْرَ يؤكِّدُ حقيقةً مطردة، وهي الصراعُ بين الحَقِّ والباطل، والمواجهةُ بين الخيرِ والشرِ، هذا الصراعُ الذي بدأ منذ المشاهدِ الأُولى من قصة آدمَ، التي حدثت في الجنة، عندما رفض إبليسُ السجودَ لآدم، ثم زَيَّنَ له الأكْلَ من الشجرة! وقد كان آدم أبو البشر يمثل جانب الحق، وكان إبليس يمثل جانب الباطل.

وسيبقى الصراع بين الحق والباطل قوياً محتداً مستمراً، حتى قيام الساعة، وسينقسم الناس في هذا الصراع إلى قسمين: أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

وأصحاب الحق هم حزب الله، الذين قال الله عنهم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢]

وأصحاب الباطل هم حزب الشيطان الذين قال الله عنـــهم: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩]

والسعيد الموفق هو الذي يأخذ هـــدى الله ويتبعـــه، وينحـــاز إلى الحـــق، ويكـــون مـــن حزب الله المفلحين، والخاسر الهالك هو الـــذي يـــرفض هـــدى الله، ويكفـــر بـــالحق، وينحـــاز إلى حزب الشيطان الخاسرين.

(٤٩)

نبأ ابني آدم

لما أهبطَ اللهُ آدمَ وزوجَه حَـوّاءَ إلى الأرض، ألهمهمـا اللهُ الاتصـالَ والمعاشـرةَ بينـهما، وصارتْ حواء تلدُ الأبناء والبنات. ولا نعرفُ كم ولـداً أو بنتـاً أنجبـت، كمـا أننـا لا نعـرفُ كيفَ كانَ يتناسلُ الأبناءُ والبنات.

وقد ذَكرت الإسرائليات كلاماً لا دليلَ عليه، من أنّ حواءَ كانـتْ تلـدُ في كـل مـرةٍ توأمين، ذكراً وأنثى، وكانَ الرجلُ يتزوجُ أختَه التي لم تنـزلْ معه، وإنمـا نزلَـتْ قبلَـهُ أو بعـده! ونحنُ نَتوقفُ في هذا الكلام، فلا نُصدقه أو نُكذبه، ونعتـرفُ بعـدمِ معرفتِنـا كيـفَ كـان أولاد آدمَ يتزوَّجون ويَتناسلون، لأنَّ اللهَ لم يخبرنا عن ذلك!.

واختارَ اللهُ آدمَ نبياً، وبعثهُ إلى أبنائه، ليُرشِـدهم ويَهـديهم ويُعَلّمهـم الحـق، فهـو أولُ نبيٍّ من البشر.

ودليلُ نبوَّته حديثُ رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم. فقـد روى (أحمـد ٥: ٢٦٦) والحاكم (٢: ٢٦٢) عن أبي أمامةَ رضي الله عنه، أنّ رجـلاً قـال: يـا رسـول الله: أنـبي كـان آدم؟ فقالَ: نَعم، مُعَلّمٌ مُكَلّمٌ.).

والقرآن يُشير إلى نبوة آدمَ إشارةً غير صريحة، وذلك في قوله تعـالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه:١٢٢]

والاجتباءُ هوَ الاصطفاءُ والاختيار، وهو اجتباء نبوة، حيثُ بعَثَه اللهُ نبياً.

وعَلَّمَ آدمُ بَنيه من الـذكورِ والإنـاثِ وربّـاهم وأدَّبهـم، فاسـتجابوا لـه، وأخـذوا بكلامِه واتَّبعوه، إلاّ واحداً منهم وسوسَ له الشيطان، فعصى أباهُ، واتبعَ الشيطان.

وحصلَ بين هذا الابنِ العاقِّ الكافرِ وبينَ أخٍ لـه صـالح، خـلافٌ ونـزاع، انتـهى إلى إقدام هذا الكافرِ على قتْلِ أخيه.

وأشارَ القرآنُ إلى مجمل قصة ابنَيْ آدم. وذلك في قوله تعـالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ

وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣١]

قصة ابني آدم أول تطبيق لما أخبر الله به آدم:

الراجحُ أن الرجلَيْن كانا ابنين لآدمَ من صلبه، وأنَّ أحدهما كان مؤمناً صالحاً، هَيِّناً مسالماً متسامِحاً، بينما كان أخوهُ معتدياً ظالماً، حاقداً حسوداً، استجابَ للشيطان، فكان جنديّاً له.

وينطبقُ على ابنَيْ آدم من صلبه الحقيقَتان اللّتان تحدَّثْنا عنهما قَبل قليل:

الأولى: حقيقةُ العداوةُ المتأصِّلَة بين الأحياءِ على الأرض، التي قال اللهُ عنها: "اهبطوا بعضكم لبعض عدو". فها هي العداوة تدبُّ بين ابْنَي آدم، وها هو أحدهم يَعْدو على أخيه ويقتله.

الثانية: حقيقةُ انقسام الناسِ إلى قسمَيْن: صالحين مُتَّبعين لهدى الله، وكافرين معرضين عنه، وها هو الانقسام بدأ عند ابني آدم، حيث كان أحدهما صالحاً معتدى عليه، وكان الآخر ظالماً معتديا، معرضاً عن الهدى، متبعاً للشيطان.

ولا نعرف من تفاصيل قصة ابني آدم إلا ما ذكره الله لنا في القرآن، لأنه لا توجد أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تضيف أشياء إلى ما ورد في القرآن، ولم يطلب الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إضافات إلى الحادثة!.

لماذا يتلو الرسول القصة على اليهود؟ :

يأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتلو على الناس نبأ ابني آدم، والتلاوة هي القراءة، أي: أن يخبرهم بالنبأ.

ويعود الضمير المجرور في: "عليهم" على اليهود، الذين كانوا في المدينة، لأن هذه الآيات في سورة المائدة، وسورة المائدة مدنية، وما قبلها إخبار عن جبن بني إسرائيل عن الجهاد، وتيههم في الصحراء أربعين سنة. فبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن موقف مذموم لأجداد اليهود، أمرت الآيات اللاحقة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتلو على أولئك اليهود نبأ ابني آدم بالحق.

ولماذا يتلو عليهم هذا النبأ؟

لأنهم أهل كتاب، وقصة ابني آدم مذكورة في أسفار العهد القديم، وقد تحدث عنها سفر التكوين بالتفصيل. فتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم على اليهود هذه القصة، برواية غير الرواية المذكورة في "سفر التكوين"، دليل على أنه رسول من عند الله – صلى الله عليه وسلم– وأن الله هو الذي أوحى بها إليه. ودليل آخر على أن اليهود حرفوا التوراة، وكتبوا أسفارها ثم نسبوها إلى الله، فها هم في قصة ابني آدم يذكرون تفصيلات لم يقرهم الله عليها في القرآن.

وبدأت الآيات الحديث عن القصة بظرف "إذ" في جملة: "إذ قربا قربانا.." ومعلوم أن "إذ" ظرف لما مضى من الزمان، وهو داخل على الجمل التي تتحدث عن أحداث وقعت في الماضي.

ماذا جرى بين الأخوين؟:

أخبر القرآن أنه وقع بين الأخوين خلاف ما، لم يذكره القرآن، وكان الحل أن يقرب كل منهما قرباناً إلى الله، لم يذكر القرآن نوعه، وقد تقبل الله قربان أحدهما، ولم يتقبل قربان الآخر، ولم يذكر القرآن كيف تقبل الله القربان.

وهذا معناه أن الذي تقبل الله قربانه كان على حق، وأن الآخر كان على باطل، وهذا معناه أن يتوقف الأخ الآخر عن خلافه وخصامه، وأن يعود إلى الحق، ويرضى بحكم الله، الذي قبل قربان أخيه.

ولكن هذا الأخ الظالم زاده تقبل الله لقربان أخيه ظلماً وعدواناً وحقداً على أخيه، وهذا بسبب حديث نفسه السيئة له، وبسبب نزغات الشيطان ووساوسه.

ودفعته هذه الهواجس والوساوس إلى التفكير في قتل أخيه، والتصميم على ذلك، بل وإعلانه والمجاهرة به، ولذلك هدد أخاه بالقتل: "قال لأقتلنك".

الفرق بين منطق الأخوين:

ولكن هذا التهديد المباشرَ لم يؤثّر في هدوء الأخ الصالِح واتِّزانِه، واكتفى بالقول: "إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين".

وفرق بعيدٌ بين منطق الأخوين:

الأخ الظالم لا يجيد إلا التهديد بالقتل، ولذلك لم ينطق إلا بجملة واحدة: "لأقتلنك"، بدون تقديم سبب مقنع لعزمه على قتل أخيه.

أما الأخ المؤمن فقد قدم منطقاً إيمانياً مقنعاً، وحجة منطقية معقولة، وكأنه يقول له: لماذا تريد أن تقتلني؟. هل لأن الله يتقبل قرباني ولم يتقبل قربانك؟ وهل لأنني على حق وأنت على باطل؟ وهل جريمتي أنني من المتقين؟

ثم بين الأخ الهادئُ أنه لا يقابل الأذى والعدوان بمثله، فإذا ما بسط أخوه يده إليه بالأذى والعدوان، فإنه لن يمد يده إليه بالعدوان، وسارع بتقديم السبب الذي يمنعه من مقابلة الأذى والعدوان بمثله.. إن الذي يمنعه من ذلك هو خوفه من الله رب العالمين، وليس عجزه عن الدفاع عن نفسه، أو جبنه وضعفه أمام أخيه.

وإن أصر الأخ المعتدي على عدوانه، وأقدم على قتل أخيه، فإن الأخ المظلوم يذهب إلى الله مظلوماً، يشكو إليه ظلم وعدوان أخيه، ويذهب المعتدي القاتل إلى الله باغياً، حاملاً إثمه وإثم أخيه القتيل، وسيعامله الله بعدله، ويجعله من أصحاب النار المعذبين المخلدين فيها!.

نفس القاتل تطوع له قتل أخيه:

ولكن هذا المنطق العقلاني الهادئ لم يؤثر في الأخ الظالم، فلم يتراجع عن تصميمه على قتل أخيه، واستجاب لهواجس نفسه ووساوس شيطانه، وأقدم على قتل أخيه وسفك دمه: "فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين".

وتشير جملة: "فطوعت له نفسه قتل أخيه" إلى الصراع العنيف الذي جرى في كيان هذا الظالم، بين نفسه الآثمة الآمرة له بقتل أخيه، وحثها على ذلك، ونداء عقله الموضوعي المتأثر قليلاً بما سمع من كلام أخيه، فنداء عقله يدعوه إلى عدم قتل أخيه، وتحريض نفسه الأمارة بالسوء تدعوه إلى قتله، وهو بين شد وجذب، وصدام وتَمَزُّق، يستمع لنداء عقله، فيهمُّ بالتراجع عن قتْلِ أخيه، ويتأثَّرُ بتحريضِ نفسهِ فيقوى تصميمُه على قَتلِ أخيه.. وأخيراً انتصرَ الجانبُ الشريرُ في كيانه على الجانب الطَّيِّب، فطوَّعَتْ له نفسُه الآثمةُ قتل أخيهِ، وقامَ بقتله تحت تأثير تطويع نفسهِ له.

ولم يُفَصل القرآن كيفية قتله، واكتفى في التعبير عن ذلك بكلمة واحدة: "فَقتله". ونَعترفُ بعَدم مَعرفَتنا لكيفية قتله، ولا الأداةِ التي قتلهُ بها، لأنّ اللهَ لَمْ يُخبرنا بذلك، ولا نذهب إلى الإسرائيليات لنأخذ منها بيان هذه الكيفية، ونبقيها على إبهامها، مع المبهمات الكثيرة المتعلقة بالقصة.

الغراب يعلم القاتل كيفية دفن الجثة:

وهذه أول جريمة قتل تقع على الأرض، ولذلك فوجئ القاتل بجثة أخيه أمامه، ولم يعرف كيف يتصرف فيها.. وأراد الله أن يبين له ضعفه وجهله وقلة حيلته، فبعث له غراباً طيراً، ليريه كيف يواري سوأة أخيه: "قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي، فأصبح من النادمين.".

صار الغراب يبحث ويحفر في الأرض برجليه ومنقاره، وينظر إلى الأخ القاتل الحائر، ويلفت نظره إليه، وكأنه يخاطبه قائلاً: انظر إلي، وتعلم مني، وقم بحفر حفرة في الأرض، ضع فيها جثة أخيك!.

وفهم القاتل إشارة الغراب، وزاد شعوره بالحسرة والندم والخسارة، وأطلقها جملة عجيبة، تعبر عن ضعفه وعجزه وجهله وقلة حيلته: "يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي".

نهاية قصة ابني آدم وشناعة جريمة القاتل:

انتهت قصة ابني آدم بدفن ابن آدم القاتل جثة أخيه القتيل، ولا ندري ماذا حصل له بعد ذلك، وكيف تصرف أبوه آدم معه، ولا كيف كانت نهايته، ومع أن رواة الإسرائيليات والأساطير يفصلون في ذلك، إلا أننا نتوقف في كل ما قالوه، ونقف عند ما وقف عنده القرآن، فلا نتجاوزه، ويسعنا ما وسع الصحابة في ذلكَ!.

وننبه إلى عدم ورود حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر اسم كل منهما، ونتوقف في تسمية الإسرائيليات القتيل "هابيل"، والقاتل "قابيل"، فلا نعرف اسم كل منهما.

وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابن آدم القاتل يتحمل وزر كل نفس تقتل ظلماً! فقد روي البخاري (برقم: ٣٣٣٥) ومسلم (برقم: ١٦٧٧) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها! لأنه كان أول من سن القتل!..".

(٥٠)
وفاة آدم عليه السلام

عاش آدم عليه السلام على الأرض حياته التي قدرها الله له، قضاها في عبادة الله وذكره وطاعته، وكان فيها نبياً يعلم أبناءه ويوجههم ويرشدهم، ولعله فوجئ بأحد أبنائه ينحاز إلى الشيطان، ويقتل أخاه، رغم نصحه وتوجيهه له.

ولعله تعب في حياته على الأرض، لأنه كان يسعى في تحقيق حاجاته، من طعام وشراب وكساء، وتحقيق ذلك لزوجه وأبنائه، ولعله جاع في الأرض وعرى، وظمأ فيها وضحى، عكس ما كان يتنعم به في الجنة. ولعله عرف وهو على الأرض أبعاد قول الله له: "فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى..".

لم يكن إنزال آدم على الأرض عقوبة له:

وهنا نتساءل: هل كان إنزاله على الأرض عقوبة له، لأكله من الشجرة.؟

قد يذهب بعضهم إلى أن إنزاله على الأرض عقوبة من الله له، ويتأثرون في ذلك بحديث أسفار العهد القديم، حيث يرى الأحبار اليهود – مؤلفو أسفار العهد القديم – أن الله عاقب آدم بأكله من الشجرة، وطرده من الجنة، فكان إنزاله إلى الأرض عقاباً وطرداً، بل كان غضباً من الله عليه!! وهذا كلام باطل مردود.

إن الله لم يعاقب آدم على أكله من الشجرة، ومن ثم لم يكن إنزاله على الأرض عقاباً من الله له، لأن آدم ندم على ما فعل، وتاب إلى الله واستغفره، واعترف بذنبه وخطئه.. وقد تاب الله عليه، واصطفاه واجتباه، وجعله نبياً.

ومعنى توبة الله عليه أنه سامحه في ما فعل، ولم يؤاخذه به، وإذا سامح الله عبده وغفر له وتاب عليه ورحمه، فإنه لا يعاقبه على ما تجاوز عنه، وبخاصة إذا كان هذا العبد نبياً.

لقد كان إنزال آدم إلى الأرض تحقيقاً لقدر الله، السابق لخلق آدم وأكله من الشجرة، فالله قدرأن يخلق آدم، وأن يسكنه الجنة فترة من الزمان، وأن يأكل من الشجرة ناسياً، وأن ينزله بعد ذلك إلى الأرض، ليكمل فيها حياته، ويقضي فيها بقية عمره! فكان إنزاله إلى الأرض إِنفاذاً لقدر الله سبحانه.

لم يخلق الله آدم ليعيش حياته في الجنة كالملائكة، إنما خلقه ليعيش في الأرض، وليكون خليفة في الأرض، ودليل ذلك أنه سبحانه أخبر الملائكة أنه سيخلق آدم ليكون

خليفة في الأرض، وهذا معناه أنه سيعيش في الارض. وهذا واضح من قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة".

وهذا معناه أن آدم خلق للأرض وليس للجنة، وسيكون خليفة في الأرض وليس خليفة في الجنة، وسيعمر الأرض وليس الجنة، ولذلك لم يكن له أولاد وهو في الجنة، وجاءه الأولاد وهو في الأرض.

وإنما قدر الله أن يعيش المرحلة الأولى من حياته في الجنة، ليتذوقها ويتمتع بنعيمها وخيراتها، فيبقى يتذكرها، ويشتاق إليها، ويعمل الأعمال الصالحة ليعود إليها، فلا تنسيه الدنيا إياها، ولا يحرم نفسه منها بالمعاصي.. وليغرس في نفوس أبنائه وذريته الرغبة فيها والعمل لها!.

إذن لم يكن إنزال آدم إلى الأرض عقاباً له على أكله من الشجرة، وإنما كان إنفاذاً لقدر الله سبحانه!

عاش آدم على الأرض بقية عمره. وكل ما يتعلق بحياته على الأرض من "مبهمات" القرآن، لأن الله لم يخبرنا عنها!

لا نعرف أين كان يسكن آدم وحواء، ولا كيف كان يأكل ويشرب ويعيش، ولا أين تحرك وتنقل وسار. كما أننا لا نعرف كم من الأولاد والبنات والاحفاد أنجب، ولا تفاصيل حياته مع زوجه حواء.

كيفية وفاة آدم عليه السلام:

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه سلم عن اللحظات الأخيرة من حياة آدم عليه السلام. روى الحاكم (٢: ٥٤٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني: إني أشتهي من ثمار الجنة! فذهبوا يطلبون له.

فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل.

فقالوا لهم: يا بني آدم: ما تريدون؟ وما تطلبون؟.

قالوا: أبونا مريض، واشتهى من ثمار الجنة.

فقالوا لهم: ارجعوا، فقد قضى أبوكم.

فجاءوا. فلما رأهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم. فقال لها: إليك عني، فإني إنما أُتيت من قِبَلك، فخل بيني وبين ملائكة ربي عز وجل.

فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له، ولحدوه، وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره، فوضعوه فيه، ثم حَثَوْا عليه.

ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم..."

عندما حضر آدم عليه السلام الموت مرض، ولا نعرف كم كان عمره. فاشتهى أن يأكل شيئاً من ثمار الجنة، فطلب من أبنائه أن يبحثوا له عن شيء من هذه الثمار! مع أنهم على الأرض، ولا توجد ثمار الجنة على الأرض، فكيف يطلب منهم آدم هذا الطلب؟.

ولماذا ذهب أبناؤه يطلبون له ما يريد، استقبلتهم مجموعة من الملائكة، جاءوا لقبض روح آدم ودفنه، ولذلك كان معهم التجهيزات اللازمة لدفنه، معهم الأكفان والحنوط، لتكفين جثته وتحنيطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل لحفر قبره.

ولما عرف الملائكة مهمة الأبناء طلبوا منهم أن يعودوا لآدم، لأن عمره قد انتهى، وها هم آتون لقبض روحه.

ودخل الملائكة على آدم المريض، وبجانبه زوجه حواء، فلما رأتهم حواء عرفتهم، فخافت منهم واحتمت بزوجها.

وعرف آدم ما جاءوا له، فرضي بقدر الله، وفرح بلقائه، وطلب من حواء أن تبتعد عنه، وأن تخلي بينه وبين ملائكة الموت.!

فقبضت الملائكة روحه، وذهب إلى ربه راضياً مرضياً عليه السلام!

ثم علمت الملائكة أبناءه كيفية تغسيل الموتى وتكفينهم وتحنيطهم، والصلاة عليهم ودفنهم.. من خلال دعوتهم إلى مشاهدة ما يفعلونه بجثة أبيهم آدم.

وقالوا لهم: يا بني آدم: هذه سنتكم. وهكذا تفعلون بمن يموت منكم.. وصارت هذه السنة المطردة في الموتى من بني آدم، حتى قيام الساعة.!

وهكذا انتهت حياة آدم عليه السلام، أول مخلوق من البشر، انتهت بالموت والخروج من الحياة الدنيا، والذهاب إلى الله.

وبقيت سيرته للمسلمين عبرة وعظة، يستخرجون منها الدروس والدلالات، ويأخذون منها العبر والعظات، ويقتدون بأبيهم آدم في عبادته لله، وفي توبته واستغفاره وإنابته إلى الله.

وسيلتقي الأبناء الصالحون بأبيهم آدم في الآخرة، وسيتنعمون معه بنعيم الجنة وملذاتها، ويكونون معه خالدين فيها!!.

خاتمة
ملامح الشخصية الآدمية

في خاتمة دراستنا التحليلية لسيرة آدم عليه السلام، كما وردت في القرآن، نقف لنجمل الحديث عن ملامح "الشخصية الآدمية".

وقبل الحديث عن ملامح هذه الشخصية نشير إلى ملامح "الشخصية الإبليسية"، على اعتبار أن "إبليس" هو العدو اللدود لآدم، وهو السبب المباشر في إغوائه، والحديث عن آدم يستلزم الحديث عن إبليس، فلا يذكر آدم إلا ويذكر معه إبليس، ثم إن إبليس هو زعيم حزب الشيطان، وقائد الكافرين في الدنيا، كما أنه قائدهم في نار جهنم.

ملامح الشخصية الإبليسية:

ويمكن التعرف على "ملامح الشخصية الإبليسية" من خلال التعرف على "دور" إبليس الشرير في سيرة آدم عليه السلام.

إن "مفتاح" الشخصية الإبليسية هو التكبر والأنانية، هذا المفتاح يقرره قول إبليس لله معللاً عدم سجوده لآدم: "أنا خير منه".

وتكبره هو الذي دفعه إلى ما فعله وقام به، من مواقف شيطانية كافرة، وتكبره هو الذي منعه من التواضع والندم والاستغفار.

وبعد التعرف على "مفتاح" هذه الشخصية الشريرة، يمكن ذكر الملامح والسمات التالية لها:

١- الاستكبار والاستعلاء.

٢- الأنانية التي ملأت عليه حياته وكيانه.

٣- التمرد والعصيان، ومخالفة أمر الله.

٤- تعمد المخالفة والمعصية وقصدها وإرادتها.

٥- المكر والكيد والتآمر والغدر.

٦- الكذب وسوء التعليل والظن، واتهام النيات والمقاصد.

٧- عدم تعظيم الله، والجرأة على الحلف به كذباً.

٨- الوسوسة والتحايل، واستخدام مختلف الوسائل لإيقاع الضحية في المخالفة.

٩- الخداع والتضليل وتزيين المخالفة ، والتلبيس على الضحية.

١٠- كره الإيمان والخير، والحرص على صد الناس عن الهدى، وإبعادهم عن طريق الله.

١١- نشر الفواحش والرذائل، ومحاربة الأخلاق الحسنة والفضائل، والحرص على "تعرية" الناس، وكشف عوراقم وسوءاقم.

١٢- استخدام النساء في تحقيق مهمته الخبيثة، ورسالته الشيطانية، لأنه يفسد الحياة البشرية بتعرية النساء، ونشر الإباحية والزنا، ولولا المرأة لما نجح في رسالته الخبيثة.

١٣- الحرص على "تجنيد" الناس في حزبه الشيطاني، وإغوائهم وإسقاطهم بشتى الوسائل والأساليب.

١٤- التنصل من مسؤوليته، والتبرؤ من الإضلال، وترك الضحية يتحمل مسؤوليته وحده، والسخرية به.

وخير ما يوضح طبيعة "الشخصية الإبليسية" آية قرآنية كريمة، تخبر عن "الخطبة الإبليسية" التي يلقيها إبليس على حزبه وأتباعه الكافرين، بعد أن يستقر بهم المقام في نار جهنم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم:٢٢]

ملامح الشخصية الآدمية:

إن "مفتاح" شخصية آدم عليه السلام هو "الإنسانية". وإن آدم يمثل الإنسان، بكامل كيانه وشخصيته، الإنسان بكل ما له وكل ما عليه، الإنسان بما فيه من مظاهر القوة وصور الضعف، الإنسان بما فيه من فضائل ورذائل، الإنسان بما فيه من إيجابيات وسلبيات.

آدم عليه السلام "نموذج" للانسان، بكامل إنسانيته، وإن من يقرأ سيرة آدم عليه السلام كأنه يقرأ سيرته هو، وإن ملامح "الشخصية الآدمية" هي ملامح "شخصية" أي واحد منا، كيف لا وهو "أبو البشر"، وانتقلت إلينا ملامحه وسماته وخصائصه، على شكل "جينات" وراثية.

ويمكن التعرف على ملامح "الشخصية الآدمية" التالية:

١- التوازن في خلقه بين الجانب المادي البدني، والجانب المعنوي الروحي، وتوفير كل حاجات ومتطلبات كل جانب، وعدم طغيان جانب على جانب.

٢- الضعف والحاجة والفقر، وهذه لوازم كونه مخلوقاً، لأن معنى أنه مخلوق أنه ضعيف فقير عاجز، محتاج إلى خالقه في كل أموره، لا يمكن أن يستغني عنه.

٣- عدم التمالك أو التماسك عند النوازع والجواذب والمغريات، وهذا من مظاهر ضعفه، وقد عرف إبليس هذه الطبيعة فيه، ومنها دخل إليه.

٤- القدرة على التعلم والمعرفة والتحصيل، وبهذا الجانب كان تفضيله على الملائكة، ويبدو أن تعليم الملائكة غير تعليم آدم، ولهذا كان اعترافهم بأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله.

٥- كرامته عند الله، ومترلته العالية في ميزانه سبحانه.

٦- تفضيله على الملائكة، واعترافهم بذلك، وتجلى هذا في سجودهم له.

٧- تفضيله على كل المخلوقات الحية في الأرض، ولذلك جعله الله خليفة فيها، وسيداً على كل ما فيها.

٨- تسخير كل ما في الكون من طاقات وخامات ووسائل لهذا الخليفة، وتوظيفها لخدمته، وتعمير الأرض وإحسان الاستفادة من خيراتها.

٩- تزويده بالوسائل والقدرات الذاتية والخارجية، التي تعينه على تحقيق الخلافة في الأرض، وإحسان تعميرها، والسيادة عليها.

١٠- تحبيب الشهوات المختلفة لهذا الخليفة، وجعلها متجذرة في طبيعته وشخصيته، ودعوته إلى ضبطها بضوابط الشرع، وليس اقتلاعها ووأدها.

١١- القدرة على تحمل المسؤولية وأداء الامانة، وقبول التكليف، وتحمل النتائج.

١٢- الرغبة في التملك والحصول على المقتنيات، وجمع الأشياء، والمباهاة في ذلك.

١٣- الرغبة في الخلود، والبحث عن الوسائل التي تحققه وتوصل إليه.

١٤- الوقوع في الخطأ والذنب والهبوط إلى أسفل.

١٥- النسيان والغفلة والسهو.

١٦- القدرة على تجاوز الخطأ، وتصويب المسار، والتحليق للأعلى، والتسامي للأفضل.

١٧- القابلية للانخداع والاغترار، والوقوع في الشَّرَك والمصيدة.

١٨- اليقظة بعد الغفلة، والبصيرة بعد الزلة، والتوبة والإنابة والعودة إلى الله.

١٩- الرغبة في الستر والفضيلة، والتحلي بمكارم الأخلاق.

٢٠- الخجل من كشف العورة، والمسارعة إلى سترها، واعتبار التعري مرضاً وشذوذاً نفسياً.

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف مرتبة وفق صدورها

١. سيد قطب الشهيد الحي.
٢. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣. أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤. مدخل إلى ظلال القرآن.
٥. المنهج الحركي في ظلال القرآن.
٦. في ظلال القرآن في الميزان.
٧. مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨. في ظلال الإيمان.
٩. الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠. تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١. مع قصص السابقين في القرآن.
١٢. البيان في إعجاز القرآن.
١٣. ثوابت للمسلم المعاصر
١٤. إسرائيليات معاصرة
١٥. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد
١٦. لطائف قرآنية.
١٧. هذا القرآن.
١٨. حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩. الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد
٢٠. التفسير والتأويل في القرآن.
٢١. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٢. الأتباع والمتبوعون في القرآن.
٢٣. الخطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤. تفسير الطبري تقريب وتهذيب: ١-٧.
٢٥. الرسول المبلغ صلى الله عليه وسلم.
٢٦. القصص القرآني: ١-٤
٢٧. تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.

٢٨. تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.
٢٩. القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.
٣٠. سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد
٣١. صور من جهاد الصحابة.
٣٢. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.
٣٣. مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٣٤. سعد بن أبي وقاص القائد المجاهد.
٣٥. الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب
٣٦. سيرة آدم عليه السلام